انا والرياضـــة

بقلم ظافـــر القاسمي

* * *

هل علي من حرج اذا كان حديثي اليوم : «انا والرياضة»؟ الم يكتب استاذي وصديقي شفيق جبري كتابا براسه سماه « انا والشعر» ثم اعقبه بكتاب آخر سماه « انا والنثر» ؟ وما الذي يضير رجلا مثلي ان يتحدث عن تاريخه مع الرياضة ، او عن تاريخ الرياضة معه ؟ وهل الفارق بعيد بين الشعر والنثر ، وبين الرياضة ؟ قد يكون الشعر والنثر اخلد لصاحبهما ، وابقى على الدهر ، وقد تكون الرياضة موقوتة الاثر ، زمنية المفعول . ولكن حدثني بربك ، هل سمعت ان شاعرا او ناثرا او محاضرا اراد ان يلقي على الناس شيئا من آثاره ، فحضر مئات الالوف ، في اي بلد من البلدان ؟ ولكن كم سمعنا ان مباراة من المباريات قد حضرها مئات الالوف ؟ واذا كان الشعر قديما قدم الانسان ، أفليست الرياضة كذلك ؟ الم ترافق الانسان منذ اقدم العصور والدهور ، وفي جميع الاقطار والامصار ؟ واذا كنا ما زلنا حتى اليوم نتمتع بروائع الادب الاغريقي ، افلسنا نرى آثار الملاعب الرومانية ، وهما متعاصران ؟

واجيب على تساؤلي : « هل علي من حرج» ، بلسان القارىء فاقول : « لا حرج ان شاء الله » !

واذا كان استاذي وصديقي شفيق جبري قد تحدث في كتابه « انا والشعر» كيف بدأ فتى يافعا ، ثم انتهى شاعرا مبدعا ، وفي كتابه « انا والنثر» كيف كان منشئا صغيرا ، ثم استوى كاتبا كبيرا ، فاني اسارع الى القول بان حديثي — كما سيراه القارىء — سيصور كيف تدهورت من خذلان الى خذلان وكيف انحدرت من اخفاق الى اخفاق . ويزين لي غروري ان اقرر ان الصورتين متماثلتان ، لانهما نهايتان ، والنهايتان تتلامسان .

وعلى الرغم من انني اكره دوما لفظ « انا » ، لا سيما اذا أضيف اليه لام التعريف ، كما يقولون اليوم « الأنا » ، يترجمون بذلك عن الفرنسية moi ، فما كان الحديث عن النفس حبيبا الى احد ، ولا كان باعثا على الارتياح ، حتى ولو كانت فيه عظات وعبر ، وحتى لو كان الغرض منه عاما لا خاصا ، على الرغم من هذا كله ، فاني قد احببت هذا العنوان ، ورايتني اخطه على غير اختيار مني ، وللقارىء ان يكره هذا العنوان او ان يحبه ، اما انا ، فلا حيلة لي في العدول عنه .

تاريخي مع الرياضة يبدا من اليوم الذي كنت فيه طالبا في «مكتب عنبر» (١) ، وكان لي من العمر ثلاثة عشر عاما ، وكان استاذنا ، استاذ الرياضة ، عزة الرفاعي ، يقتادنا بعد ظهر الخميس ، من ايام الربيع والخريف ، ومن ايام الشتاء الصاحية ، الى مكان كان يسمى « مرجة الحشيش » ، قريب من الجامعة السورية ، أقيم عليه اليوم معرض دمشق الدولي . وفي هذا المكان كنا نلعب كرة القدم ، او كان طلاب مكتب عنبر يلعبون فيه كرة القدم . كما كان ملعبا عاما ، لنادي بردى ، ولفرق الجيش الفرنسي . وفي أول يوم اقتادنا فيه استاذنا الى هذا الملعب ، رايت عند بابه سيارة اسعاف ، تابعة للجيش الفرنسي ، وقد تجمع اللاعبون حولها ، وتجمعنا مع المتجمعين ، وفهمت من حديث القوم — على ضعفي باللغة الفرنسية يومئذ — ان الكرة قد اصابت احد الجنود في عنقه ، وانه مات . وقد رايته بأم عيني يحمل على محفة ، ويلقى ميتا في ارض سيارة الاسعاف ، فلما مضت السيارة بالميت ، دخل رفاقي مع استاذهم الى الملعب . اما انا فقد عدت الى البيـــت !!

هل يمكن ان انسى هذا المشهد الاليم ؟ ابدا ! لقد رايت الجندي في الحلم ، ونهضت مذعورا . وكان هذا فراق ما بيني وبين كرة القدم الى اليوم ، فما عرفت انني حضرت مباراة مختارا ، والمرات التي حضرت فيها عددا لا يتجاوز اصابع اليد الواحدة ، خلال اربعين عاما ، انما حضرتها مكرها . ومرت سني مكتب عنبر ، وانا لا احسن من الرياضة الا الحركات السويدية !

ثم نلت شهادة البكالوريا الثانية ، وانتسبت الى كلية الحقوق ، وكنا نسميها «معهد الحقوق» . في السنة الاولى لقيت الصديق الاستاذ عصام الانكليزي ، ابن الشهيد عبدالوهاب الانكليزي . وكان قد فارقنا الى بيروت وتلقى دراسته الثانوية في جامعتها الامريكية ، وهنالك اولع بكرة اليد «التنس» . وقد جددنا معا عهد صداقة انعقدت في الطفولة ، ومددنا اخوة كانت بين ابوينا ، واخذ يغريني برياضته الاثيرة . ان ذلك في عام ١٩٣٣ ، أي قبل ثلاث وثلاثين سنة ، ولم ابلغ العشرين من العمر ، واخذ يحدثني عن فوائدها ، وكم تكسب الجسم من رشاقة ، وكم تبعث فيه من نشاط . ثم قال : وعندنا في ملعب الجامعة فتيات اجنبيات ، يأتين بالالبسة القصيرة (الشورت) ، من حسنهن ومن دلهن ومن عبثهن . . !! تصور هذا في مدينة كدمشق قبل ثلاث وثلاثين سنة ، فاستمالني ، وتشجعت ، وسألت : وماذا يلزم ليصبح الانسان لاعب تنس ؟ قال : مضرب (راكيت) ، وثلاث طابات ، وشبكة ، وبنطال ابيض ، وجوارب ، وحذاء مطاط ، ومـــا أدري ماذا . . . قلت : وكم ثمنها ؟ قال : ليرتان سوريتـــان (سقى الله تلك الايام) ! قلت : غدا بعد انتهاء الـــدوام

نبتاع معا هذه الحاجات . ومضيت افكر لا في اللعبة وفوائدها ، بل بالحسان وجمالهن ودلهن ...

وفي الغد ، تجمع الطلاب في الفرصة الاولى ، واذا بي ارى الصديق الاستاذ عبدالقادر الميداني ، وقد اصبح من بعد نقيبا للمحامين ، يربط عينه برباط انكرته عيني ، فاقتربت منه وحييته ، وسألته عما به ، فاذا هو يجيبني : لقد اصابت الطابة عيني وانا العب التنس ، وكادت تؤذيها ، وهي الان كما تراها . كان عصام في تلك اللحظة الى جانبي فالتفت اليه وقلت : لقد الغي الموعد ، فلا تنتظرني هذا اليوم . وعبثا حاول الصديقان اقناعي بأن هذا حادث طارىء ، وانه ليس ذا بال . فأجبت : لست مستغنيا عن عيني .

وهكذا مضت سني الدراسة في كلية الحقوق وانا اكره الرياضة ، حتى هذه اللعبة الرشيقة الانيقة التي تلعبها الحسان ، لم تستملني ، لخوفي على عيني .

ثم عملت محاميا مدربا . وكان لي اصدقاء يحبون السباحة في البحر ، ويرتادون بيروت من اجلها . يذهبون في الصباح الباكر ، ويعودون في المساء . فاغروني بمرافقتهم ، وحدثوني عن السباحة وفوائدها ، وعما في سواحل البحر من جمال تنخلع له قلوب الفتيان. كانوا اربعة من الاطباء الناشئين : شوكة السقطي ،وعدنان سعيد ، وغسان الجلاد ، وشفيق الايوبي ، ومهندس كيماوي هو رفيق سعيد ، وكاتب هذه السطور . ورافقتهم في يوم جمعة من جمع ايلول ١٩٣٩ ، وما زلت اذكر اننا سمعنا ونحن على ساحل البحر نبأ اعلان الحرب ، ولم نبال ، كأن شيئا لم يقع . وقد ارتدينا لباس البحر (المايو) كما ارتدوه ، ونزلنا في الماء . وقد عرفت للوهلة الاولى ان واحدا منا فقط هو الذي يحسن السباحة ،هو الدكتور شوكة السقطي . اما الباقون ، فلا يحسنون الا بل اجسادهم في الماء ، والخوض او التخويض فيه . فصنعت كما صنعوا . كان هذا قبل الظهر في بلاج سان سيمون . ثم تغدينا ، واستلقينا على الرمل متعبين، الى ان حان الاصيل ، فامتلأ البحر بالناس ، فتبعناهم . كنا جميعا ، باستثناء السقطي ، نحاذر التقدم في البحر، ولا نجاوز المكان الذي يصل فيه الماء الى صدورنا ، وقد علمونا انه اذا ما هجم الموج علينا ، نهضنا لئلا يغمرنا ، فكنا نجد متعة في هذا النهوض . وفجاة سمعت السقطي يصيح : يا لطيف ، يا لطيف !! فالتفت نحوه ، فاذا هو يلقي بنفسه في الماء ، ويدفع صديقنا الايوبي الذي كان يغطس في الماء ، فلما ارتفع راسه عنه ، رأيت مخايل الموت في وجهه ، وما زال به يداوره ، ويدافعه ، حتى خرج به عن المكان الذي كان عميقا ، والذي فيه شيء يسمى « دوارا » ، فلما اعتدل في مكان لا يجاوز فيه الماء صدره، اقتاده الى صخرة قريبة ، واقعده عليها ليستريح ، فما كان مني الا ان تركت الماء ، وجلست الى جانبه ، لا لأروح عنه ، بل لانني اصبحت خائفا مثله ، وكنت ارتعش ارتعاشه .

جلسنا على الصخرة ساعة او اكثر ، لا نتحدث ، ولا تنفرج شفتا احدنا عن ابتسامة ، ولا نعلق على ما نرى كما يفعل الشباب في مثل هذا المشهد . وقد عرفت فيما بعد أنه كان يفكر بما كنت فيه أفكر . كان اخواننا في البحر ، يتراشقون بمياهه ، ويداعبون الحسان ، ويحاولون العوم – واظن انهم لم يحسنوه حتى اليوم – الى ان غابت الشمس ، وآن أوان الرحيل ، فسالونا النزول عن الصخرة لنذهب ، فابينا . عندئذ عرفت انه كان يفكر مثلي في كيف نقطع المسافة بين الصخرة والساحل ، فالحوا علينا ، فالححنا في ابائنا ، واصررنا على البقاء ما لم يؤت لنا بقارب نركبه الى الساحل . ولعلهم سخروا منا ، ولكنا لم نبال سخريتهم . وبعد مفاوضات ، ومناقشات ، ومباحثات ، بلغت حينا حد الصياح ، قبلنا ان ننزل الى الماء ، شريطة ان يكون كل واحد منا بين اثنين ، وان يمسك من يتقدمنا ومن يتخلفنا بايدينا ، وان نمشي صفين متوازيين ، وان يكون السقطي مسيطرا على الصفين . وهكذا نزلنا ، ومشينا وكأننا نمشي على جمر الغضا ، فلم نكد نصل الى الساحل ، حتى سقط كلانا من الاعياء والبهر واللهث !!

ثلاثة وثلاثون عاما مضت ، لا أعرف انني بللت قدمي خلالها بماء البحر او بماء النهر ، وما اعرف ان الماء لامس جسمي الا في الحمام ، حتى كان صيف هذا العام (١٩٦٦) ،وانا في جدة . دعيت الى مكان يسمى «الابحر»، وهو خليج رائع ، يكاد يكون مغلقا ، يقع على بعد ٣٥ ك.م عن جدة . انزلني اطفال في العاشرة والثانية عشرة عنوة الى الماء ، بعد ان رايت طفلة فرنسية عمرها خمس سنوات تلقي بنفسها فيه . ولكني لم البث الا عشر دقائق ، ثم عدت الى اليابسة. كان ذلك اثرا من آثار الحياء ليس غير .

لقد اصبحت اخاف من الماء ، لانني رأيت بأم عيني انه سبب من أسباب الموت المحقق .

ثم اصبحت محاميا ، وكان لي صديق عزيز اوكل الي المرافعة في خلاف عقاري ، وقد قررت محكمة الاستئناف اجراء تحقيق محلي على العقارات المتنازع عليها ، ولم يكن يسعني الا ان احضر معه التحقيق في موقع العقارات . كان ذلك عام ١٩٤٣ ، وفي منطقة الجولان التي تقع جنوبي دمشق . وكانت الحكومة قد اهتمت فاوفدت عددا من افراد الدرك خيفة ان يقع صدام بين الفريقين . فلما نزلت من السيارة رايت الخيول الجياد قد اعدت لركوبنا . وانا لم اركب حياتي كلها حمارة ، فكيف لي بركوب الخيل ؟ رايت القوم ينهضون

(١) هو الثانوية الوحيدة في دمشق طوال مئة عام . راجع عنه كتابنا «مكتب عنبر» طبع المطبعة الكاثوليكية – بيروت عام ١٩٦٤ .

على جيادهم ، وانا واقف . فاقتربت من قائد الدرك . وكنت اتوهم انه محب لي ، وهمست في اذنه : انا لا احسن ركوب الخيل ، فاختر لي راسا هو اقرب الى الجحشة منه الى المهرة ، فقال : امرك ! ودار بين الخيول ، وقال : اركب هذه ، انها عاقلة . فاستعنت بالله ، وامتطيت ظهرها ، فلما استويت عليه ، عرفت لماذا احب العرب الخيل ، ولماذا اكرموها .كانت هذه هي المرة الاولى التي اعلو فيها ظهر فرس . وعرفت كذلك لماذا كان من آداب العرب ان يبدأ الراكب السلام على الراجل . انه زهو عجيب ، يصيب الفارس ، لا يشعر به الا الذي عرفه.

ومضت الخيل ، ومضت فرسي بينها . واخذت الخيل تقفز ، وقفزت فرسي معها . وفرحت باني قد استطعت حفظ توازني خلال قفزها . ولم تكد تمضي دقائق ، حتى عضت على لجامها ، وانطلقت بكل قواها ، وكأنها قد دخلت في سباق . وكان لسرجها حلقة ، فتشبثت بها جهلا ، وقد رايت امامي ، على الرغم من ان الدنيا دارت بي ، ابن عم صديقي ، وكان اسمه عبد الرحمن . كان على بعد (٥٠٠) متر تقريبا ، فاخذت اصيح بصوت اسمعاهل الحجر والمدر،واهل الدنيا والاخرة : يا عبد الرحمن! يا عبدالرحمن!وقد مررت من جانبه كالسهم ،ومضت بي قرابة خمسة كيلو مترات ، بمنتهى قوتها واندفاعها . ثم وقفت فجأة ، فنزلت عن ظهرها حالا . وكنت اتصور وانا على ظهرها كيف سأموت . ذلك بأن الارض التي كنا نجتازها بركانية صخرية ، فأنا ميت كيفما سقطت ، لا جريح ولا كسير ! وتركت فرسي ، وانتظرت عبدالرحمن، فاذا هو يهرب نحوي ، فلما وصل قال بلكنته الشركسية رحمه الله : (برافو والله ، خيال تمام) . قلت : لا خيال، ولا .. خذ عني هذه اللعينة ، ولماذا لم تلحق بي ؟ قال : وكيف الحق بك ؟ لو لحقت بك لبقينا في الطراد طول النهار ، فهدأ غضبي عليه .

هل تدري ماذا كانت نتيجة هذا المشهد ؟ كان معنا مساعد المحكمة ، والمهندس الخبير .والظاهر انهما مثلي لا يحسنان ركوب الخيل ، فلما رايا ما حل بي ، نزلا عن ظهريهما واختارا المشي على الركوب . وقد مشيت معهما من الثامنة صباحا حتى السادسة مساء ، ايثارا للعافية !

اما قائد الدرك الذي اختار لي الفرس ، فحينما رأى ما حل بي ، قفل عائدا الى القنيطرة ، ولم ار وجهه الى ان مات ! ولله في خلقه شؤون !

وفي عام ١٩٤٥ بدا لي ان اشتري سيارة ، فاشتريت . كانت قديمة ، مستعملة ، ولكنها جيدة . فقد كنا في اواخر ايام الحرب العالمية الثانية ، وقد تحولت جميع معامل السيارات في الدنيا الى المجهود الحربي . واخذت اتدرب على سوقها ، أو على قيادتها (فما أدري والله الصواب ، لان السوق من الخلف ، والقيادة من الامام ، اما السيارة فلا انت امامها ولا انت خلفها وانما انت في وسطها) . وخيل الي انني اتقنت . وكانت الدنيا في اوائل الصيف ، فاخذت اذهب الى بلودان واعود منها . وذات يوم ، وكان جيش الاحتلال البريطاني ما زال في البلاد مع سياراته الضخمة المخيفة . كنت اقود السيارة ، وكان معي اصدقاء ، جلس خلفي واحد منهم خبير مجرب ، حاضر البديهية ، ذكي القلب. وكنت اسير في صحراء الديماس ، لا طلوع ولا نزول ، ولا التواء ، واذا بصديقي الذي هو خلفي يقول : ظافر ! خذ يمينك ، وقف ، ووراءك سيارة كالجبل . وكنت امشي بسرعة اربعين كيلومترا في الساعة ، فما كاد يتم كلامه حتى حاذتني السيارة البريطانية المخيفة ، وما ادري كيف لامس قفاها مقدمة سيارتي ، فاذا بسيارتي مندفعة داخل الفلاحة خمسين مترا او اكثر . لم يكن من صديقي الا ان اقبل علي ، وضم صدري بذراعيه ، خيفة ان يدخل مقود السيارة في صدري . وقفت السيارة ، ونزلنا منها ننفض غبار الموت .

وغني عن البيان انني منذ ذلك اليوم لم اجلس وراء مقود سيارة !

هذه سلسلة من الحوادث كرهتني بالرياضة ، ايا كان نوعها . ولعلك تسأل : هل هو الجبن ؟ قد يكون . ولكن الظاهر ان الجبن في الدنيا نوعان . احدهما هذا الذي وصفت لك ، وما اظن انه عيب ، لانه لا يدعو الى التخلف عن واجب اخلاقي او ادبي.وثانيهما جبن بغيض كريه حتما ، هو الجبن المعنوي الذي يحملك على القعود عن واجب محتم . وليس لي ان اتحدث عن موقفي من النوع الثاني ، فذلك الى العجب اقرب . وقانا الله شرور العجب !

ولعلك تسأل : وما هو رأيك في الرياضة ؟ وجوابي انني كالاب الجاهل الذي يتحرق على تعليم اولاده . انني أعرف مزاياها ، وادرك سر اقبال الخلق عليها ، وولوعهم بها . وأتمنى دوما لاهلي وأقاربي واصدقائي واولادهم ان يأخذوا انفسهم بها ، وان يخصصوا لها ساعة من يومهم . ولكني لا أجد ، حتى اليوم ، القدرة على ممارسة شيء منها ، باستثناء المشي ، واي مشي ؟ انه ليس كمشي استاذي وصديقي بدوي الجبل ، عشرة كيلو مترات في كل يوم . لا ، انه الكيلومتر ، واذا جليت ، فكيلومتران .

واعود في ختام هذه الكلمة ، لاحيي استاذي وصديقي شفيق جبري ، وانا في الدمام ، وهو في عزلته الدائمة في بلودان . فما ادري كيف مر بخاطري كتاباه « انا والشعر » و « انا والنثر » فأوحيا الي بأن اكتب « انا والرياضة » . وارجو ان يسامحني على هذه المقارنة الباردة . وللاستاذ الجليل خالص محبتي ومودتي .

الدمام ــ السعودية

ظافر القاسمي

مقال في الصورة الفنية

بقلم نعيم حسن اليافي

* * *

دلالات المصطلح : يستعمل مصطلح صورة image في اكثر من مجال واحد من مجالات المعرفة الانسانية ويتخذ في كل منها مفهوما خاصا وسمات محددة . ويمكن ان نحصر ذلك في خمس دلالات :

(١) الدلالة اللغوية . (٢) الدلالة الذهنية . (٣) الدلالة النفسية . (٤) الدلالة الرمزية . (٥) الدلالة البلاغية .

وقد تمتزج هذه الدلالات ويعدو بعضها على بعض ، وتتداخل فيما بينها وتتشابك فيستعمل ناقد فني او باحث نفسي او دارس انثروبولوجي اكثر من دلالة ، او قد يستعير دلالة صاحبه في الميدان الاخر ، الا انها في النهاية لا تنحل الى مصطلح عام واحد يضمها جميعها ويعنيها في نفس الوقت ، ومهمة الباحث او الناقد ان ينسق هذه الدلالات ، وان يعي الدلالة التي يؤثرها ، او يدرك الدلالة التي يتحدث عنها .

١ ــ الدلالة اللغوية

لعل اقدم هذه الدلالات هي الدلالة اللغوية او المعجمية التي كانت تستعمل في جميع الميادين منذ عهد الاغريق دون تخصيص ، ثم انحصرت في الدراسات الحديثة في نطاق اللغة وفقهها وعلم المعاني ، واصبحت تعني نسخة طبق الاصل copy او صورة picture اي محاكاة حرفية لاي موضوع من الموضوعات الخارجية حيا كان او عديم الحياة ، ومما لا شك فيه ان هذه الدلالة تصدق على بعض الانماط المحددة التصويرية والرسوم الخطية للاشكال ، بيد ان نقلها الى مجال الشعر واطلاقها على القصيدة للاشارة الى شكلها الخارجي form فقط كان وما يزال محاولة عابثة مضللة ، بل ومصدرا كبيرا لسوء الفهم الذي دفع بعض الباحثين ليقيم علاقة مشابهة من نوع ما بين الشكلين الحسيين الخارجيين لكل من الشعر والرسم ، مع ان الشكل هنا وهناك لا يخرج عن كونه عنصرا واحدا من عناصر الصورة الجمالية وهو وحده ابعد من ان يكون المكون الحقيقي الاصيل لها .

٢ ــ الدلالة الذهنية

تستعمل هذه الدلالة في ميدان الفلسفة وتشير الى ان الصورة هي وحدة بناء الذهن الانساني ووسيلته الوحيدة للتعرف على الاشياء وتوجيه السلوك او تحديده بالنسبة اليها . وقد استنتج الفلاسفة من هذا الدور الخطير الذي تلعبه انها العنصر العقلي القابل للفهم من موضوعات العالم واحداثه ، وعدوها ولا سيما في الفلسفة القديمة مقابلة للمادة الموجودة في الخارج ، ومن ثم قامت هذه الثنائية او المقابلة التي لا تمازج بين طرفيها (الصورة ــ المادة) ، وتعتبر الفلسفة الحديثة والوضعية منها بالذات هذه التفرقة تفرقة ميتافيزيقية مجردة لا وجود لها في الحياة ولا اساس لها من الصحة ، انها مجرد نظرية سيطرت على التفكير الفلسفي طوال عدة قرون ، وتعتقد لذلك بعدم جدواها ، بل انها ترفضها رفضا باتا ، وترى ان من الصعوبة بمكان ان تفصل بين حديها الممتزجين ، فالصورة هي المادة ، والمادة هي الصورة ، ولا فرق بينهما ، وسواء عدت الصورة في طور انفصالها مقابلة للمادة او في طور ادماجها ممتزجة بها فهي هنا وهناك واسطة المعرفة بالعالم المحيط بنا ، وتعني دراستها دراسة هذه المعرفة وبكلمة اخرى دراسة كل شيء .

٣ ــ الدلالة النفسية

تقترب الدلالة النفسية من الدلالة الذهنية الا انها تستخدم في نطاق علم النفس لتعنى على حد تعريف « براي » « التذكر الواعي لمدرك حسي سابق ، كله او بعضه في غياب المنبه الاصلي للحاسة المثارة » ، وبكلمة اخرى ان الصورة هي انطباع او استرجاع او تذكر لخبرة حسية او ادراكية ليست بالضرورة بصرية ، ونقول « ليست بالضرورة بصرية » لنتحرز من تلك الاراء الخاطئة التي شاعت لدى البعض من علماء النفس ومن تأثر بهم من النقاد والادباء (وبالذات جودمون وهيوم) حين قصروا الصورة على الدلالة البصرية وقد خلق كل من هذين الدارسين الاخيرين تلك الضلالة التي شاعت في ميدان النقد (على حد تعبير روبرت) وهي ان الكلمات يجب ان تنبه صورا بصرية ليس غير ، وقد دفعت هذه الضلالة الكثير من الدارسين ليربطوا بين فن الرسم وفن الشعر دون اي مبرر سوى الانحراف وراء وجهات نظر لا يؤيدها فن الشعر ، صحيح ان الصور البصرية هي الحالة الطبيعية للتفكير لدى جمهرة كبيرة من الناس الا انها سواء بالنسبة اليهم والى اشباههم من العاديين او بالنسبة لغيرهم من العلميين والتجريديين والفنانين لا تلعب وحدها الدور الفرد في تفكيرهم ، خصوصا وان الحاسة الواحدة ليست سوى آلة راصدة او مركز طليعة سرعان ما تلتقي مع بقية الحواس في عملية الادراك او التلقي .

وقد وجد الكثير من النقاد هذه الدلالة السيكولوجية للصورة شيئا جديدا بالنسبة اليهم فتأثروا بها كما تأثروا بنتائج التجارب التي اجراها سير فرانسيس غالتون

(١٨٢٢ – ١٩١١) حول القدرة على توليد الصور وانتهى منها الى ان الناس يختلفون في عادات تشكيل الصور في اذهانهم ، وحاولوا في كثرة من البحوث والمقالات امتدت منذ بداية القرن وما تزال ان ينظروا الى الشعر نظرة جديدة يسلطون عليه فيها اضواء كاشفة لم تسلط من قبل ويعتمدون الصورة محورا لدراساتهم ، واذا اردنا ان نعرف الصورة النفسية في النطاق الادبي قلنا انها كل تعبير عن تجربة حسية تنقل من خلال البصر او السمع او غيرهما من الحواس الى الذهن فتنطبع فيه ، اي ان هذه الحواس كلها او بعضها تدرك عناصر التجربة الخارجية فينقلها الذهن الى الشعر ثم يعيد احياءها او استرجاعها بعد غياب المنبه الحسي بطريقة من شأنها ان تثير في صدق وحيوية الاحساس الاصيل .

٤ – الدلالة الرمزية

تستعمل هذه الدلالة بالذات في الدراسات الانثروبولوجية وفي البحوث التي تعتمد نتائج هذه الدراسات ، والصورة لديها هي القصيدة باجمعها باعتبارها رمزا حسيا واحدا يكشف عن اشياء كثيرة جوهرية في حياة الفنان وشخصيته وطبيعة ذهنه ، انه خلق يعادل به الشاعر حدسه او يقدم رؤيته ، وقد تبنى الصورة (العمل الفني) بناء صوريا او بلاغيا بالدلالة الفنية وقد لا تبنى وليس هذا بالمهم فالمهم ان الصورة هنا رمز لا يحمل الواقع وغير الواقع وانما هو عالم واحد لا يشير الى غيره لانه نفسه اشارة ، وقد بنت هذه الدراسات رؤيتها للموقف على طبيعة الصورة البدائية بالدلالة الجزئية التي تحمل وحدة ، هي وحدة الفكر واللغة ولا تعرف اثنينية ولا تعارضا .

٥ – الدلالة البلاغية

يشير معجم اكسفورد الى ان دلالة الكلمة البلاغية وجدت اول ما وجدت حوالي عام١٦٧٦ ويذكر «سنتسبري» (١٠٥/١) انها عرفت قريبا من هذا التاريخ منذ عهد شكسبير ، وهذا يعني حداثة الدلالة الفنية للكلمة بالنسبة للدلالتين اللغوية والذهنية على الاقل ، وقد دعمت هذه الدلالة بتلكالبحوث الكثيرة التي درست طبيعة لغة الشعر واصل اللغة ، وامتدت منذ القرن الثامن عشر وحتى الوقت الحاضر ، واذا اعتبرنا التصوير والحالة هذه مرادفا للتعبير المجازي كانت الصورة الفنية المفردة هي اي شكل مفرد من اشكال الكلام البلاغية يتضمن مقارنة او علاقة بين مركبين او عنصرين ، او لنقل كل تعبير غير حرفي .

هذه الدلالات المختلفة للمصطلح واستعمالاته العديدة في ميادين المعرفة الانسانية تشكل لدى اي باحثفينطاق الادب متاهات كثيرة ، وتقيم امامه صعوبات جمة وتضع في طريقه عقبات كأداء ، فاي دلالة يمكن ان يتخذها اساسا لدراسته ما دامت الصورة بطبيعتها فضلا عن دلالاتها تقع في منتصف الطريق بين الفن والفلسفة ، وفي الوقت الذي تبدأ لتدير فيه ظهرها لاحدهما تشرع في الاستدارة نحو الاخر ، او لنقل ما دامت الصورة تمثل اندماج خطين اولهما خط الخصوصية الحسية الذي يربط الشعر بالموسيقى والرسم وثانيهما خط المجاز اي الاسلوب غير المباشر الذي يقارن بين العوالم محتذيا الدقة في «ثيمانه» بترجمتها الى لغة اخرى ، ويبدو اننا لسنا في وضع المفاضلة بالنسبة لطبيعة الصورة ، وان كنا كذلك بالنسبة لدلالتها ، لان البحث في طبيعة الصورة يشبه الى حد بعيد البحث في طبيعة المواد الاولية للشعور ، اي البحث في طبيعة الدافع القوي الدائم عند الشاعر لخلق الحياة او لبث الحياة من روحه ذاتها في الاشياء التي خيم الموت عليها بظلاله القاتمة ، ومن الصعوبة ان نجزىء هذه الطبيعة الحية الى عناصرها المكونة لها نعلي عنصرا على حساب آخر ، ولعلنا نتفق مع «مري» في هذا الصدد حين يشير الى ان الادراك الحسي والحدس البصري ضروريان حقا لكل فنان عظيم والى ان الشاعر يجمع دائما مدركات حسية نابضة بالحياة تصبح فيما بعد اقوى وسيلة يشكل ويعبر بها عن حدسه الروحي ، كما اننا نتفق معه مرة ثانية حين يرى ان البحث في طبيعة الصورة لا يمكن ان يستمر الا الى حد معين والا وجدنا انفسنا قد وصلنا الى حافة الجنون ، اما البحث عن المصطلح فلعله لا ينتهي بنا الى نفس الحافة رغم كل المشكلات التي يثيرها ، والتي يمكن لنا ان ننأى عنها في نفس الوقت ، ولقد رايتني الوب حتى وجدتني اوثر الدلالة الاخيرة (الخامسة) لمصطلح صورة لعدة اسباب : اولها ان مصطلح صورة افضل من غيره في نطاق اي دراسة فنية . وثانيها لانه المصطلح الوحيد الذي بين ايدينا يحمل وجهات نظرنا ، وثالثها لان هذا المصطلح يجنبنا جميع الاتهامات والعيوب العديدة التي ترمي بها البلاغة التقليدية ، ويبعدنا عن مشكلاتها وقد لا يرضى عن هذا المصطلح بالدلالة التي ذهبنا اليها فريق من الدارسين ، ويفضلون الاحتفاظ بالمصطلح القديم «مجاز» او «استعارة» ، بيد انه يجب الا ننسى ان المشكلات التي يثيرها هذا المصطلح اكثر بكثير من تلك المشكلات التي يثيرها مصطلح «صورة» ، ونستطيع ان ندرك بعض ذلك اذا وقفنا مع «رتشاردز» وتطور موقفه من دلالة مصطلحه المفضل metaphor ، فقد رفض في «فلسفة البلاغة» مصطلح «صورة» بحجة انه مصطلح مضلل يخلق حالة من الاضطراب في النقد لارتباطه بدلالات لغوية ونفسية لا تمت الى طبيعته الفنية بصلة ، وقال بأن مصطلح «استعارة» الذي يجب ان نوسعه حتى يضم جميع الوان التعبير الانفعالية افضل منه ، ولكنه عاد فضيق من دلالة المصطلح ورجع الى تحديد معناه الخاص

الطاووس

تـه وكابـر ما حـلا لك   عشق الكـون جمـالك
أيهـا المختـال زهـوا   آه ما أبهـى اختيالـك
ذنـب يحنـى لـه الـرأس مـن العجـب حيالـك
جعبـة للحسـن أطلقـت لنـا منهـا نبالـك ...
رقـص الذيـل ودر كالشمس لا نلقـى مثالـك !
فـرش الريـش كقوس السحب واصنع ما بدا لك
مـلك الطيـر على الاطـلاق مـن ضاهـى جلالـك
وتمنـى كـل طيـر   ينشـد الحسن ظلالك !
اعطنـي الريشـة يا طاووس كـي أطـري خلالـك
آه لو تنظـر فـي المـرآة أو تعـرف حالـك ...
لتطيـرت   مـن المجـد   وقبلـت خيالـــك !!

زحلة ـ لبنان   رياض معلوف

على اساس انه المعنى المألوف للكلمة ، فقال في كتابـه (التأويل في التعليم /٥٠) « ان اعطاء الكلمة ذلك المعنى الواسع جدا والعريض جدا ليس صحيحـا فـي جميـع الاحوال اذ يلزمنا ان نميز بين ما هو استعاري وبين ما هو حقيقي (او غير استعاري) دون ان ننسى تشابه طـرق التفكير جميعها الذي جعلني اوسع من معنى الاستعـارة اصلا ، ولا تصبح دراسة الاستعارة دراسة مفيـدة ذات ثمار ممتازة الا اذا درسناها بمعناها الضيق كنمط خاص من انماط التعبير اللغوي ودلالات العلامات » .

وفي الحق ان استعمال مصطلح صورة ليشمل جميع الاشكال البلاغية رغم خطورته ومشكلاته افضل بكثير مـن اي استعمال تقليدي آخر . يقول «مري» في كتابه «اقطار الذهن» ما يلي : « ... رغم خطورة ما توحي بـه كلمـة صورة فانها ضرورية لنا لان الاستعارة والتشبيه يدخلان بنا دنيا التصنيف الرسمي لصـور البلاغـة ، اما كلمـة «صورة» فتشمل الاثنتين ، ويمكننا ان نستخدمها لنعني بها اشتراكهما في الصفات الاساسية ، واذا استطعنا ان نبعد تماما من اذهاننا ما توحي به الكلمة مـن انها صورة بصرية في الغالب ، وأبحنا لها ان تعني جزءا مما تعني كلمة الخيال التي نضفي عليها دلالة هامة شاملة ، اي اذا اعتبرنا الصورة شيئا غير قائم بذاته او مستقلا ، ورأينا فيها أقوى آلة في يد ملكة التصور واكثرها تفردا ـ فانها ستكون بلا ريب أثمن واقوم مـن الكلمتيـن التقليديتيـن الاستعارة والتشبيه وما فيهما من ايحاء كاذب ومن صيغة منطقية لا يمتان الى دنيا الفن بصلة ولا يصلحان لها » . ويكفي لن تكون الكلمة ذاتها بخلاف جميع اشكال التعبير المجازية مشتقة من نفس الكلمة التي نطلقهـا على ملكـة التصور والخلق او الخيال بوجه عام ، يصدق هذا علـى اللغة الانجليزية image و imagination كما يصدق (اذا اردنا ان نضع تحديدين جديدين للكلمتين) على لغتنا العربية «صورة» و «تصور» وان كان النقد العربي بـلا ادنى ريب قد ترجم المصطلح ذاته عن اللغة الاوروبية ونقله الى مجاله في جملة ما نقل دون ان يقـف علـى مختلف دلالته ومشكلاته وما يحيط به من غموض ، ومن المقطوع به ان كثرة من الدارسين والنقاد لم يتخلصوا بعد مـن الدلالة اللغوية للكلمة ولا مما توحي به مـن العلاقة غيـر الصائبة بحاسة البصر ، واذا كنا نريد لنقدنا العربي هذا ان يغنى ، ولبلاغتنا ان تتطور وتثرى، فيجب اول ما يجب فيما يتعلق بالمصطلح ان نبعد عن اذهاننا أية اشارة مباشرة يتجه بها نحو المعجم او العين ، او لنقل بكلمة ادق ايـة اشارة يقتصر بها عليهما ، ثم نخرج به من هذا الحد الضيق ليعني اية وحدة تركيبية يتلمسها الشاعر في كل مكان ، ويخلقها بجميـع حواسـه وبكـل قواه الذهنية والشعوريـة .

القاهرة   نعيم حسن اليافي

في واحـة التماثيـل

بقلـم اديـل الخشـن

***

شمـوخ في التلة وهدوء في الوادي وفنان يدلف الى محترفه ، يدخله كالعابد الورع ، ينسى نفسه وينسى العالم ليتلاشى في روح المبـدع .

يأخذ ازميله وطينه ، ويقف بكل ما يعتمر في صدره من انسانية وصفاء ، فاذا الحجر يتنفس بعمق ويعبر باختـلاج .

كان لا يزال طالبا على مقاعد الدراسة عندما اطلت تلك الموهبة من عينيه الرماديتين فنحت رأس استاذه على طاولة مقعده . وسعى بكل طاقاته لاشباع هـذا النهم المتدفق في دمه ، نهمه الى الفن ، الى النحت ، فتوجه الى ايطاليا يعيش فيالجو الذي يتلهف اليه، فروما مهد سحري تربى فيه أعرق الفنانين ، في فضاء مشبـع بالجمـال ، فاضاءت عبقرياتهم في لوحات خالدة وتلألأت في تماثيـل برزت في كل سقف وعلى كل جدار .

وفي روما في بيت استاذه اضاءت طريقـه عينـان ابحر فيهما نحو الف جزيرة ، فراى نفسه مع « لامرتين » وحبيبته «غرازيلا» في بيت ذلك الصيـاد فـي جزيـرة « بروشيدا» يسهران على «السطيحة» في ضوء القمـر ، او يفترشان الرمال الفضية ويخطان باصابع مرتجفة كلمات الحب البريء . وعاد لامرتين الى وطنه في قلبه صـورة حبيبته وقد عاش عمره يسقيها دموعه وحسراته لتحيـا في نفسه . وعاد هو الى وطنه يحمل معه عروسا ايطالية احبت لبنان ، هذه الجنة التي انبتت حبيبهـا وغمرتـه بشفافة انبيائها . اما هو فكان يشعر بالغربة بين اهلـه وفي وطنه ، غربة تعصر نفسه الما لانصراف رفاقه عـن اصالتهم وجذور ارضهم الى فنون غريبة دخيلة لا تعبـر عن روح واقعها . وانزوى في صومعته مفضلا معايشـة الصخور على حياة تحجر نفسه وتقززها .

كان يستيقظ باكرا ويبدا عمله في قبو قديم يعوم على سطح واد تناثرت على جنباته باقات الوزال وعطرت نسائمه عروق الصعتر المزهرة . العصفور وحده ، هـو انيسه في الصباح الباكر . احلى الساعات لديه هي هذه الفترات الصباحية التي ينساب فيها السكون والارتياح الى نفسـه ، فيقف كالعملاق امام احجاره ينفخ فيها روحا خلاقة وانسانية صادقة . جمعته الصدفة برجل قروي في احدى السهرات ، تعرف الى الفنان واصبح يـزوره في كل صباح ، فـي الوقت الاجدى لديه ، كان الهدوء يغلف المصنع عندما دخل عليه وحاول ان يضايقه باسئلته واحاديثه وهو منصرف بكليته الى عمله منصهر به حتـى الذوبان . زمجر وتأفف بعصبية ، ولكن الزائر لم يفهم . فاستشاط غضبا وحطم التمثال الذي امامه ، فكان صوت انكساره كصيحات الالم المرهق ، غير ان الرجل وقـف حياله جامدا كالحجر واحس الفنـان بوخـزات الشوك تدمـي فؤاده .

يطالعك في واحته سور قديم ، نصـف دائـري ، اصطفت عليه تماثيل مختلفة تذكرك بكنيسـة القديـس بطرس في روما . وان ولجت الى الدار الخارجية المزينة باحواض الزهور المنوعة ، تنجذب عيناك بقوة خفية نحـو ملاك ابيض يتحفز للطيران . هذا التمثال هو تحفتـه ، نفخ فيـه روحـا وثابـة وعزيمـة ماضيـة للتعالـي للتحليق ولمناجاة المبدع . قاعدة التمثال امراة مغمضـة العينين تسلم الروح ، فاذا بنفثاتها تتصاعد وتتحول الى امراة متوثبة تدوس هيكل الخنوع والذل وترفع يديهـا بقوة وتتطاول لتلتقط النجوم .

اما القاعة الداخلية التي هي مسكنه ، فقد رصفت على جدرانها شتى الرؤوس،كل له تعبيره الخاص وروحه المميزة : ام الاطفال ، المرحومة حبوبة حداد ، كانتتجاعيد وجهها المبرة تضفي عليه البسمة الوادعة فتشع من خلالها روحها المشبعة طيبة وبراءة . وهناك في الزاوية يجتذبك اليه راس كأنه قدّ من جذع سنديانة عتيقة ، او صخـرة من صخور «عين كفاع» ، فوق عينيه رفان غليظان يعيدان الى الاذهان حاجبي «ابي سعدى» الصقريين،وقد تبعثرت خطوطهما في اتجاهات عديدة كفكر مارون عبود . كانـت بسمته مشجعة وشفتاه تكادان تنفرجان ليقـول كلمتـه الساخرة . كذلك الشاب سعيد عقل ، الذي يتسم بهالة كلها شموخ واستعلاء ، تغوص عيناه في مجاهل بعيـدة وتتوغل في اعماق الاساطير وتطلقان « اوروبا وقدموسا » يحملان الى العالم الحب والمعرفة .

كان مبدعا فازميله لم يقف عند التقاطيع الواضحة يرسمها وينمقها بل ولج الـى النفـوس فاخرج كنوزهـا وعرضها بفن ومهارة .

عشنا ساعات حلوة متعبدين في محراب الفن ، وفي ذلك الطريق المتعرج حتى الشاطىء ، كنا نجمع الصعتـر العطر واضاميم الوزال ذات القناديـل الصفراء الشاحبة والعبق النفاذ الذي يحل في اعماق النفـوس انتعاشـا وتفتحا على الضوء والفرح .

اديل الخشن

من مسرحية غـادة

•

مقطع من الفصل الثاني : في سرادق القائد الروماني بيدا فاتح مدينة أفاميا .

•

عدنـان مردم بـك

دمشـق



بيـدا :

أبغي فتاتـك

الوليـد :

ما تقـول

بيـدا :

وهـل تراني ألعب
هي خير قربان يقدم للظى ويقرب

الوليـد :

لو كنت تسألني الحياة بذلتها لك باختياري
لكن أراك سألتني ما ليس يوسعه اصطباري
وطلبت شيئا هاج لي شجني وماد له وقاري
أولادنا الذكرى الحبيبة من شباب مستعار
وجلال ما قبست يد الامساء من قبس النهار
وفتون ما خط الشروق وشف عن كاس وعار
ووديعة الذكرى وبوح الشوق في ليل لسار
أولادنا الغد كله ومحط آمال كبار
وتريدني الجزار ينشط للصغائر والدمار
هيهات يقوى ساعدي يوما على فعل الصغار

بيدا متهكما :

أنسيت ما رددته متبجحا غيا وختلا
قلت : الزعامة مغرم ناءت به الاحرار ثقلا
لا متجر لمكاسب أو مربع للفيء يجلى
والحر من بسط اليدين وما ثنى الكفين نجلا
مالي أراك قبضت من شح يدا وعييت فعلا

الوليـد :

ما كل جود كان يعزى للفضيلة والكرم
ولد الفتى عرض وهل في صوت عرض متهم
الشح بالاعراض من شرف الرجولة والشمم

بيـدا :

ان كنت ترغب بالسلام لدفع ما لا يشتهى
فاجعل فتاتك فدية في درء عادية الاذى
شيئان ما من ثالث لهما وكل كاللظى
فاختر كما يحلو الضمير اليك او يحلو الهوى
ان شئت صون دم الرجال فقرب ابنتك الفدى
أو كنت في دمها الحريص ولا تطيق لها ردى
فاعقل لسانك وانتظره بالاهل ما لا يشتهى

(اصوات استحسان من رجال القائد بيدا وضحك)

احد الرجال :

مرحى بيدا

آخر :

شمر زندا واشهر غمدا

(الوليد يخرج وهو يقول :)

للظلم مهما تناهى نهاية وكتاب
ولم يكن ببعيد عن الغشوم حساب

فريد السعد - شكيب الاموي

بقلم البدوي الملثم

* * *

١ ـ فريد السعد

في حياة «فريد السعد» صفحات مطوية تفيض سنى ونورا ، وتعبق عطرا وبخورا ، وكلما عكف الكاتب المنصف على تقليبها والتنقيب فيها حنى الهامة فخارا لعظيم يحجم عن نشر آثاره ، وتذييع اخباره ، وتاطير مآثره بهالة من الزهو والخيلاء ! وفي يقيني ان اصدق ما ينطبق على فريد السعد الحكمة الانكليزية القائلة «الوطنية الصادقة لا تتكلم عن نفسها ! » .

في «أم الفحم» القرية الوادعة الجاثمة بين غابات الزيتون ولد «فريد» وتلقى دروسه ، والتحق بعدها بكلية النجاح الوطنية بنابلس (١٩٢١ ـ ١٩٢٤) ونال شهادتها الثانوية وكان الاول في صفوفه واشتهر بين اقرانه بتفوقه بالعلوم والرياضيات . وسرعان ما حمله طموحه الى الالتحاق بالجامعة الاميركية في بيروت وأمضى فيها سني دراسته العليا (١٩٢٤ ـ ١٩٢٨) ونال شهادتها بالطبيعيات والرياضيات ، ومن زملائه في عهد الدراسة الدكتور قسطنطين زريق والدكتور نبيه فارس وعادل عسيران رئيس مجلس النواب اللبناني سابقا وعبد الفتاح المغربي عضو مجلس السيادة في السودان وغيرهم .

الى العراق : وهربا من جو خانق محموم ساد فلسطين طيلة عهد الانتداب قصد فريد بغداد ليستروح فيها جوا عربيا شذي الفوح ، وليخدم جيلا هو عماد الامة في وحدتها العربية الكبرى ، فعين استاذا للطبيعيات والرياضيات في الثانوية المركزية ببغداد (١٩٢٨ ـ ١٩٣٠) .

الى الاردن : وبعد عامين سلخهما فريد بين الرصافة والجسر .. احس بأن عليه واجبا نحو الاردن هذا البلد العربي الناشىء المتحفز للوثوب فجاة في اعقاب عام ١٩٣٠ وعين مديرا لثانوية اربد ، ومن دواعي غبطتي ان تتلمذت عليه فوجدت فيه مربيا موهوبا جمع الى الخلق الرفيع التفكير السليم بالامة التي تحدر منها وتخليدها على خارطة الدنيا . وتقديرا من المسؤولين في مديرية المعارف العامة عين مفتشا للانكليزية والرياضيات فادى رسالته في صدق واخلاص واستغل «وزناته» في خدمة الجيل الصاعد وتنشئته .

الى فلسطين : ورأى فريد ان الواجب يدعوه لخدمة وطنه المغصوب ، وبلده المنكوب ، وهنا لعب القدر دوره .. اذ كان السر واكهوب ، المندوب السامي الاسبق في فلسطين يتطلع عام ١٩٣٣ الى شاب عربي واع كريم النبعة ليعهد اليه بتأسيس مدرسة ابناء العشائر في بير السبع ، وفي زورة قام بها المندوب لعمان كاشف المسؤولين بهذه الامنية فأومأت الاصابع الى فريد ... فأسفرت المفاوضات عن قبول فريد هذه المهمة فقصد بير السبع البلد الصحراوي النائي وامضى فيه عامين تميزا بالجدية وترويض الطلاب على الاباء ومقت الضيم ومقارعة الظلم والحفاظ على قدسية الوطن .

الى الجهاز الاداري : وتقديرا من المسؤولين لكياسة فريد في تصريف الامور نقل عام ١٩٣٥ قائم مقام لحيفا وصرف في السلك الاداري مدة عشر سنوات قضاها متنقلا بين حيفا والناصرة وطولكرم وصفد وبير السبع .

الى الحقل الاقتصادي : وفي عام ١٩٤٣ استقال فريد من الخدمة في حكومة فلسطين وعين مديرا للبنك العربي في حيفا واسهم في تأسيس «لجنة اليتيم العربي» و «جمعية انعاش القرية العربية» و «جمعية المعارف الاسلامية » .

وهنا لا بد لنا من عودة الى الوراء لنقف طويلا امام خدمات اداها فريد لامته وهو على راس عمل حكومي حساس ... فترى اي قلب جريء يحمل هذا الوطني المؤمن ، واي نفس حملته على اجتراح العجائب والمذهلات!

(١) روى لي الدكتور سابا برنيخ (طبيب الحكومة في طبريا سابقا) ان «فريدا» آمن في قرارة نفسه بان معركة العرب مع الانكليز وحدهم ، وليست مع اليهود ، فصمم وهو قائم مقام الناصرة (١٩٣٦) على الثأر من المصالح البريطانية الحساسة في الشرق العربي (وكانت انابيب بترول العراق تمر بقضائي طبريا والناصرة) ووجد في الغيور الجسور المرحوم رافع الفاهوم (شيخ قرية ندور في مرج ابن عامر) خير من يعينه على تنفيذ مهمة شاقة شائكة هي نسف انابيب البترول !

وبعد ان كاشف الشيخ «رافعا» بالامر سرا عمدا معا الى طريقة بدائية في الانتقام هي لف انابيب البترول بـ « الخيش » واشعال اللفائف لتطرى ... وبعد ليونتها اطلق الثوار الرصاص عليها فتدفق البترول انهارا ... ولا شك في ان «فريدا» بانتقامه هذا من المصالح الاستعمارية اول من فكر بهذا النوع من الانتقام ، ونفذ دك مرافق الاجنبي ونسفها !

(٢) في عام ١٩٣٦ قامت في فلسطين حركة الشهيد القسام وصحبه المؤمنين فكان فريد ، وهو قائممقام حيفا والناصرة ، يزورهم في معاقلهم الحصينة ، ويشجعهم على المضي في مقاومة المستعمر ، ويقدم لهم ما أمكن من المساعدات !

(٣) روى لي الدكتور نايف حمزه (رئيس مستشفى

الحكومة بحيفا سابقا) نادرة تكاد تكون اقرب الى الخيال منها الى الحقيقة هذه خلاصتها :

في عام ١٩٤١ قامت في العراق ثورة المرحوم رشيد عالي الكيلاني وفيها اشترك ، بصورة فعلية ، المناضل العربي الدكتور امين رويحه . وبعد ان باءت هذه الثورة بالفشل امتطى الدكتور رويحه طائرة من بغداد الى برلين مارة باجواء فلسطين ، فانزلت السلطات البريطانية الطائرة في مطار اللد والقت القبض على الدكتور رويحه وارسلته مخفورا الى سجن عكا .

وذات يوم تلقى فريد ، وهو قائمقام حيفا ، رسالة شفوية من سياسي عراقي ليطلع الدكتور رويحه على فحواها ، لكن كيف السبيل الى لقائه والاجتماع به وهو يرسف بالاغلال في سجن عكا ؟ اخذ فريد يفكر في حيلة تمكنه من لقاء السجين العربي المضطهد فكلف صديقه الجراح الدكتور نايف حمزه نقل الدكتور رويحه من سجن عكا الى سجن مستشفى حيفا بداعي مرضه ... وبعد ان نقل كلف الدكتور حمزه انجاز مهمة شاقة هي ان يسهل لقاء الدكتور رويحه في سجن المستشفى ... وكان حراسه من البوليس اليهودي ! وراح الدكتور حمزه يفكر في وسيلة تحقق الغرض المنشود ... وذات يوم دعا «فريدا» الى مكتبه في المستشفى وخلع على « القائمقام» لباس طبيب ... وزين صدره بـ «سماعة» لامعة ! وهنا دخل «فريد» غرفة السجين وابلغه الرسالة وعاد الى مكتب الدكتور حمزه باعصاب هادئة ، وخطى متزنة ، كأن لم يحدث شيء ! وعاشت هذه الزيارة سرا في طي الكتمان حتى كشفنا عنها في هذا الفصل ، علما بأن الانكليز ابان حكمهم فلسطين سنوا قانونا جائرا تقضي احدى مواده باعدام من يحمل رصاصة ... فكيف اذا كان موظفا مسؤولا تزيا بزي طبيب ؟

(٤) روى لي الدكتور نصفت كمال (وزير الانشاء والتعمير الاردني) انه كان طبيبا حكوميا في قضاء بير السبع عام ١٩٤٢ و «فريد» قائمقام القضاء ، وفي تلك الفترة سعت شركة الكارن كايمت اليهودية الى شراء مساحات شاسعة من اراضي بير السبع لكن فريدا وقف لها بالمرصاد وقاوم حلمها الذهبي ، واحبط المساعي التي بذلها السماسرة في هذا السبيل ! وذات يوم جاءه نفر من زعماء الوكالة اليهودية (رئاسة الوزراء اليوم) وعلى راسهم غوبتن المحامي الشهير وهددوه بالعزل اذا استمر في سياسته السلبية هذه .. لكن فريدا طردهم من مكتبه الرسمي منشدا نفسه قول «عرار» شاعر الاردن :

فـ «بلطوا البحر» غيظا من معاملتي وبالجحيم ان استطعتم فزجوني
فما أنا راجع عن كيد طغمتكم حفظا لحق «الطفارى» و «المساكين»

لم تقف الوكالة اليهودية مكتوفة الايدي حيال الموقف العنيد الذي وقفه فريد في بير السبع فبادر رجالها الى اثارة القضية في لندن ... وبعد فترة زار بير السبع الماجور هانلوك عضو البرلمان البريطاني (وهو برتبة رئيس في الاستخبارات البريطانية) للتحقيق في شكوى الوكالة اليهودية وعجم عود فريد وسبر غور ولائه للتاج البريطاني!

وكانت تربط فريد بمستر بلانكتسوب ، مساعد حاكم اللواء في بير السبع ، صداقة وطيدة الدعائم ، وتميز هذا البريطاني الحر بضمير حي ، وبتأثير من هذه الصداقة اقنع مساعد حاكم اللواء بتوصية المندوب السامي ليصدر امر دفاع يحظر فيه دخول اليهود منطقة بير السبع لفحص التربة والتحري عن طبيعة الاراضي هناك وشرائها .

ويقتضينا الانصاف ان نسجل في هذا الفصل ان مستر بلانكتسوب هذا البريطاني النبيل ، استقال من الخدمة في حكومة فلسطين احتجاجا على سوء المعاملة التي يلقاها عرب فلسطين في عقر دارهم ، توطئة لتهويد بلادهم ! وفي المذكرة التي قدمها مساعد حاكم اللواء للمندوب السامي علل اسباب استقالته بالظلم المتعمد الذي اصاب أهل البلاد الاصليين من جراء سياسة جائرة سلكتها بريطانيا في فلسطين قلب العالم العربي ! وحالما وقف «فريد» على نص الاستقالة حمل صورة عنها الى المكتب العربي بالقدس ودفعها الى المسؤولين ليتخذوا من هذه الوثيقة التي قدمها بريطاني مسؤول وسيلة للتشهير بظلم الانكليز وبطشهم بعرب فلسطين خلال حكم طويل اتسم بالغدر والخيانة !

بعد النكبة الفلسطينية : وبعد حلول هذه النكبة اختارت «فريدا» الحكومة السورية ، في عهد المرحوم حسني الزعيم ، عضوا في الوفد السوري لمؤتمر التوفيق المنعقد في لوزان ، فكان الناطق الرسمي باسم الوفود العربية في الشؤون الاقتصادية !

الى الاردن : وفي عام ١٩٤٩ رجع فريد الى الاردن ودخل القطاع الاقتصادي بهمة الواثق من نفسه واقال عثار شركة وطنية هزيلة للسجاير ، فحلق بها حتى غدت بجهوده ومساعي العاملين معه سيدة شركات التبغ في العالم العربي . وفي مطلع عام 1951 كلف «فريد» الدخول في وزارة جديدة في عهد المغفور له الملك عبدالله بن الحسين ، لكنه اعتذر بمشاغله ورغبته في خدمة الاقتصاد الاردني . وليجني الوطن ثمار خبراته عين عضوا في مجلس الاعيان الاردني (١٩٥١ — ١٩٥٥) .

في دنيا المآثر : وبعد ان حلق فريد كالنسر في الحقل الاقتصادي تلفت وهو الرجل الواعي الى واجبه القومي ازاء الطلاب المتفوقين في بلده ، ورأى ان الاردن احوج ما يكون الى «التكنية» العالية وان العصر الذي نعيش فيه عصر تميز بالتقدم السريع في العلوم النظرية والتطبيقية ، وان قوة الامة ومنعتها وقدرتها على استغلال مصادر الطاقة في اراضيها ، واستثمار مواردها الطبيعية ترتبط ارتباطا وثيقا بمدى تقدمها علميا وتكنولوجيا ، وان اسهام الامم الحية في تقدمها التكنولوجي غير مقصود

على الحكومات فحسب ، بل يتجاوزها الى الافراد ، فصمم «فريد» على اجتراح عمل فريد هو الاول من نوعه في العالم العربي استجابة لقوله تعالى : « وفي أموالهم حق للسائل والمحروم» فخصص «هبة» دائمة للعلوم التطبيقية !

وتحقيقا لهذا الغرض النبيل تنازل عام ١٩٦٢ عن ٩٠٠ سهم من الاسهم التي يملكها في «شركة التبغ والسجاير الاردنية» لانفاق ارباحها سنويا على عمل مفيد دائم هو تعليم طلاب متفوقين محرومين يقومون بدراسات علمية في النواحي التطبيقية ، ولا يقتصر ذلك على دراسة الطرق المألوفة ، بل يشمل ايضا القيام بالبحث العلمي التطبيقي في حقل الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا وغيرها.

وتنفيذا لاغراض هذه «الهبة» وشروطها اختار فريد مجلس اوصياء من صفوة رجال الاردن فشرعوا عام ١٩٦٢ في اختيار الطلاب المتفوقين وايفادهم الى الجامعات، ولعل في هذه المبرة السخية حافزا يدفع اثريائنا العرب ليشاركوا في اشاعة العلم بين الطلاب المتفوقين المحرومين!

اثقل الله كرمة «ابي علي» بالعناقيد - على لغة جبران - وملأ بيدره بالغلال ، واترع جراته بالزيت والعسل ، ووضع يده على قلب كل متفوق محروم يتطلع الى العلم ، وهدى اثرياءنا الى محجة الخير والتأسي بخطى هذا المحسن الصامت !

٢ - شكيب الاموي

في «صفد» المدينة الشامخة القائمة في أعالي الجبال ، وعلى الحدود المتاخمة للبنان وسورية والاردن ولد شكيب الاموي عام ١٩١٨ وانهى دراسته الثانوية في « الكلية الاسكتلندية» وعمل موظفا في حكومة الانتداب بفلسطين وفي عام ١٩٤٣ زار السعودية مع بعثة الحج الفلسطينية وعاد (حاجا) الى بلده ، وما لبث ان التحق بالحكومة السعودية معارا وشغل عدة وظائف وفي الحرب الفلسطينية (١٩٤٨) التحق بالقوات السعودية التي كانت تعمل جنبا الى جنب مع القوات المصرية في غزة هاشم .

وبعد فشل الدول العربية في الحرب الفلسطينية عاد شكيب الى السعودية وعمل في شركات اميركية للزيت سنوات طويلة ، واشتهر كقاص عذب الاسلوب ونشر عشرات القصص القصيرة والمطولة في كبريات الصحف والمجلات التي تصدر في السعودية واسهم في الحركة الادبية هناك وزود الخزانة العربية بطائفةمن الكتبالقيمة.

من آثاره القلمية : (١) المملكة العربية السعودية (مترجم) . (٢) اصداء النغم . (٣) شهوات آثمة . (٤) شهوات محمومة . (٥) مفاتن الصحراء . (٦) شهوات غالية .

نموذج من نثره : « كان ذلك منذ خمسة اعوام ، وكنت فقيرا معدما ! وكنت احلم ببناء كوخ من سعف النخيل .. من القش.. او من ورق اكياس الاسمنت .. او من خشب صناديق السيارات ! يالله ... ما أوسع خيال الفقراء والمعدمين !

وفي يوم من الايام ... وضعت قروشا فاضت عن حاجتي في البنك فناولني الموظف دفترا ذكر فيه رصيدي ... ودفتر شيكات مطبوعا اسمي على كل ورقة منه . ولست اعرف في حياتي سرورا غمرني كسرور ذلك اليوم ... كنت ارى ان كل ورقة من هذه الشيكات قد تساوي اكثر من القروش التي وضعتها في البنك ... فأقول في نفسي : « يا للمغفلين الذين يرضون بحفظ رصيد الفقراء لديهم !

ومرت بي ايام كنت ارى فيها وجه الدنيا كالحا قاتما ... ذلك لانني لم اجد الدنيا تنصفني ايما انصاف ... فالذكاء والفهم يلازمان الفقر والعوز ، والجهل والغباء يرتعان في بحبوحة من الثراء والرفاهية والرخاء ...هذا كقاعدة عامة ! ولكنني مصمم على ان اخوض معركة الحياة بكل ما املك من مواهب لاصرع الفقر والحاجة ... ولكن للحرمان والالم فضائل ومميزاتكبرى ايضا ... انه يوسع الآفاق والادراك ويساعد على التأمل والتخيل !

وقترت على نفسي ... وحرمتها لذائذ الحياة .. واقنعتها بان كل ما ليس في وسعي الحصول عليه انما هو ترف وبذخ ... اقنعتها ان الحلوى تربك المعدة ، والفاكهة تترك في المعدة حموضة ... ولبس الحرير مظهر من مظاهر التخنث .. واقتناء السيارة الخاصة جريمة كبرى ، لان ذلك يحول بين الرجل وممارسة رياضة المشي ، وهي ارخص انواع الرياضات !

اقنعت نفسي بان غرفة واحدة فقط .. وحماما عاديا .. عاديا جدا .. ومطبخا مساحته متران مربعان فقط ... كل هذا البناء كاف للانسان العادي ولو كان من اللبن او من شجر النخيل !

وتأملت موكب الحياة ! هذا (فلان) كان بالامس زميلي ، وكنا نعمل معا في مكتب واحد ، وكنا نمشي (مشوار) المساء على ارجلنا ، وكنت احاول اقناع نفسي واقناعه ان كل شيء على غاية ما يرام ... وان كل انسان ينال ما يستحق في الحياة .. الم يقل المتنبي :

وما الجمع بين الماء والنار في يدي باصعب من ان اجمع الجد والفهما!

ثم ارى (فلانا) هذا بالذات ... يبني البيت الفخم .. ويقتني الاثاث الفخم .. ويمتطي السيارة الفخمة.. ويتزوج زواجا فخما كذلك .. فتختل القيم في نفسي.. ولكن ماذا أعمل وانا منكب على مكتبي؟ اعمل بجد واخلاص .. اقتر واحرم نفسي من اطايب العيش..لاخنق القروش في البنك ، ولن تتيسر لي الغرفة والمطبخ والحمام التي احلم بها ليل نهار .. أاسرق ؟ ولكن كيف؟ومن اين ؟

ومضت ايام ذقت فيها كافة انواع الحرمان .. فهذا قميصي وسخ ومرقع .. وهذا جوربي ممزق ومهلهل ،

وهذا بدني متسخ تسوده بقع سوداء افركها بيدي فتتدحرج (فتائل) الوسخ ... وعذري مقبول لدى نفسي .. ليس لدي الوقت ولا الصابون ولا الماء الكافي لانظف بدني ... وهذا حذائي لم ير (الدهان) ابدا وهذا شعري تتساقط منه القشرة .. فاحكه باظفاري المستطيلة القذرة ... ويطول حتى يصبح كشعر الفلاسفة فيعجبني هذا المنظر المزري .. واقول في نفسي : « انني سعيد بهذا المظهر الذي يعطيني انطباع الرهبة والوقار الفلسفي .. فاتخذ وضعا جديا ... واذا جلست مع اناس بسطاء ... تراهم قد تربعوا واخذوا سمة الهيبة والوقار ، واطل احدهم براسه وقال : « ما رايك يا استاذ بكذا وكذا ؟ » يسألونني اسئلة محرجة .. ويسألونني اسئلة فلكية او طوبوغرافية .. او سياسية او اجتماعية .. عميقة .. فاشحذ زناد فكري .. وادلي بأقوال مبهمة .. يسهل تأويلها على عدة وجوه .. واشتط بالحديث فابتعد عن مواضع الزلل ، وابلغ به مواضع مأمونة .. فيعجب الناس من هذه «اللباقة» و «الكياسة» و «سرعة الخاطر» .. لكنني ادرى بنفسي من الناس جميعا .. انني اقرب الى الغباء مني الى الذكاء .. والى الجهل مني الى العلم !

لماذا كنت قاسيا هذه القسوة على نفسي ؟ لماذا كل هذا التقتير وغل اليد الى العنق ؟ كل هذا لانني كنت وراء غاية .. اريد بناء غرفة ومطبخ وحمام على ارض أملكها (والملك لله) ولكن كيف ابني وانا لا اعرف من فن البناء شيئا ؟ لا أميز المربع من المستطيل .. والمتر المربع من المتر المكعب ! اذن سادرس .. وسأسأل صديقي المهندس فلانا .. سألصق به اسبوعا استدرجه ليحدثني عن كيفية البناء ووضع الاساس في الارض .. والمواد التي يتطلبها .. وايهما اقوى على مقارعة الدهر : اللبن ام الحجر او الآجر ؟ وهل «رصيدي» في البنك يسدد اكلاف البناء ؟

آه .. يا للجهل والفقر ما أقبحهما ! انني اغبط هذا المهندس الذي جاءه «زبون» يرغب في انشاء بيت ! امسك المهندس الورقة والقلم ورسم له ما اراد .. وبعد دقائق يتناول الرجل المخطط ويدفع ثمنه قدر راتب شهرين او ثلاثة من رواتبي !

هذا اذا كان البناء بسيطا .. أما اذا كان ضخما دفع راتب سنتين من سني عمري الضائع .. والعملية ابسط مما تتصورون .. ان تطبيق هذا المخطط على الارض أمر هين عند ذلك المهندس والمقاول لكنه عندي وعند الجهلة أمر شاق عسير .. آه ليت أبوي ضرباني ودفعاني دفعا للمواظبة على الدراسة لاميز المتر المربع من المتر المكعب .. والخط الافقي من الخط العمودي .. والمثلث من الهرم .. اذن لكانت لدي المبادىء التي اقلد بها هذا المهندس ، فأسرق منه رسما أو رسمين .. خارطة او اثنتين .. ثم استطيع بناء الغرفة والمطبخ والحمام !

ولكنني مصمم على بناء الغرفة والمطبخ والحمام !

وقد بنيتها جميعا .. وسكنت فيها .. وستتساءل : وكيف كان ذلك ؟

ستقول : سرقت ! فأقول : معاذ الله !

ستقول : هل استدنت مبلغا من صديق أو غني و «بلعته» ؟ فاقول : أتريد ان تقول : انني نصبت على صديق او ثري بمبلغ أصبح في خبر كان ؟ وهل يقرض الصديق او الثري فقيرا بائسا معدما مثلي ؟ لا .. لا .. انني ما نصبت على احد من الناس !

ستقول : اذن تذللت ... وتمرغت على اعتاب زيد أو عمرو ؟ فاشفق عليك احدهم ومنحك منحة مالية ! فاقول : حتى ولا هذا !

اذن ! وارتسمت على وجه صاحبي علامة استفهام عريضة ..لا..لا.. يا صاحبي ..حتى ولا هذا ولا ذاك ! فلا زلت عازبا أعيش وحيدا !

اذن كيف ؟

لا تسل : (كيف) يا صاحبي ! اعرق وجاهد وحدك ! اعرق واشحذ فكرك ! تمثل دوما بقول ابي الطيب :

وانما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول في الدنيا على احد !

وبالوسائل الشريفة تستطيع ان تبلغ ما بلغه غيرك ..او بعض ما بلغه..عندها تتفادى ذل الحاجة والاستجداء والتذلل .. وتستطيع الحصول على خبزك بعرق جبينك .. وتعيش مرفوع الهامة ، موفور الكرامة ، عزيز الجانب ، مع امثالنا الكادحين المحرومين !» .

عمان ـ الاردن

البدوي الملثم

الجنازة تسير ببطء .. المقبرة بعيدة .. الشمس لاهبة .. الاسفلت لزج .. الطلاب يحملون اكاليل الزهور .. اهل الحي يحملون التابوت.

جابر مات .. كان تلميذي خلال السنتين الماضيتين .. البارحة طلب مني ان اسرع في صرفه عند الاصطفاف .. البارحة رأيته .. اليوم لم اره .. غدا لن اراه .

جابر قصير .. ممتلىء الجسم .. منتفخ الوجه .. فكه مرح .. غير متزن الاعصاب .. جابر مات .. الان مسجى في التابوت .. لا يرى .. لا يسمع .. لا يحس .. لا يدرك .

الجنازة تسير مقابل محطة البنزين .. سائق السيارة الواقفة امام المحطة ينقل نظرة بين التابوت وبين لوحة التار البنزين .. ربما كان الموت يكمن له في احد المنعطفات .. ربما . امس مات سائق في هذه المحطة .. توقف في منتصف الليل ينفخ الاطار ويتابع سفره .. كان ممتلئا حياة : حسا وادراكا .. كان منتفخا شعورا : حبا وكرها .. فجأة انفلت صحن الاطار .. صدم رأسه .. ربما كان يفكر لحظتئذ بطفله الصغير الذي سيلقاه بعد حين .. او بحبيبته التي سيلقاها بعد .. اندلق دمه .. فانبطح مفرغا من الحياة والشعور .. غطاه عامل المحطة بحزقة المسح .. وصل الشرطيون في الصباح .. حملوه الى المشرحة .. خلفوا حذاءه بجوار سيارته .

الجنازة تسير .. المقبرة بعيدة .. الشمس لاهبة .. هذا الشارع كان ضيقا .. حجريا .. هدمت البلدية جزءا من الدور الواقعة على جانبيه فاتسع مداه .. قلعت احجاره ثم سفلتته .

ابو فايد يمشي في طرف الجنازة .. يغرز عصاه التي يتوكأ عليها في الاسفلت .. حتما يسليه موت انسان في الحي .. يخفف من لوعته وحزنه على ابنه الذي مات شابا .. التقيت به بعد يومين من وفاة ابنه قال :

ــ كنت قبل قليل عند قبر ابني فسمعته يؤذن .. على اي شيء يدل هذا يا استاذ ؟

صمت .. لم اجب .. رفع صوته :

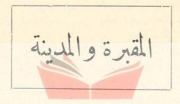
ــ تحسبني مجنونا .. لا .. قد سمعته .. اسأل ابا محمد .. الم تسمع معي صوته يا ابا محمد ؟

بقي ابو محمد صامتا .. لهجته النائحة اثارت شفقة الحاضرين .. أصوات متعددة رددت : لا حول ولا قوة الا بالله .

سأل احد الحاضرين ابا فايد :

ــ الم تحدث ابنك قبل وفاته ؟ ..

تنهد .. اجاب :



بقلم غازي التوبة

ــ كان يسخن المرحوم بندقية الصيد على النار .. ليخرج طلقا مستعصيا .. ثم نفخ فتحة البندقية بفمه .. فانطلق البارود وقطع شرايين بلعومه .. فتدفق الدم على الارض .. وحين وصلت من الغرفة الثانية كان قد فارق الحياة .. فلم اكلمه .. مات في مطلع الشباب . بكى ابو فايد .. بكى البعض معه .

الجنازة تسير .. المسافة بعيدة .. احس بألم في مفصل ساقي الايسر .. الالم يزداد كلما اطلت السير .. سألت صديقا لي عن اخيه قبل اسبوعين :



ــ اين اخوك ؟

ــ في المستشفى .

ــ الم يشف من روماتزم مفصله ؟ .

ــ اخطأ الاطباء في تشخيص المرض طوال العام .. وظهر ان اخي مصاب بالسرطان وليس بالروماتزم . ذهلت .. لم اتكلم .. تابع حديثه بألم ظاهر في تقاسيم وجهه :

ــ قررنا ان نقطع ساقه كي نوقف امتداد السرطان ولكن الفحوص الشعاعية اظهرت ان السرطان قد تجاوز عظم الورك . قلت بانفعال :

ــ اذن لا فائدة من قطع الساق !!!

ــ لا فائدة لانه قد فات الاوان .. واضعنا عاما في معالجة مرض لا وجود له . توقف قليلا .. تابع حديثه :

ــ ما زال اخي يظن انه مصاب بالروماتزم .. ولا يعرف شيئا عن السرطان .

صمت .. اخو صديقي سيتخرج هذا العام من الجامعة .. السرطان يجتاح عظامه .. الموت يزحف نحوه .. يقترب منه .. هو لا يدري ذلك . الالم في معضلي الايسر .. سافحص ساقي .. ربما كان السرطان يجتاح عظمي .

الان جابر في التابوت .. البارحة وما قبله كان في الصف في مثل هذه الساعة .. كان يتكلم .. كان يضحك فاغضب منه .. كان حيا .. اتهمه المدير بسرقة بعض الصنابير في الصباح .. ضربه اخوه عند الظهر متهما ومعاقبا .. خرج فاشترى زجاجة دواء للبق .. كرعها .. عاد الى امه يعطيها ما تبقى معه من النقود بعد شراء الزجاجة .. ثم مات .. مات .. لن يأتي الى الصف .. لن يتكلم .. لن يضحك فاغضب منه .

الجنازة تسير .. انا اسير .. الشارع شجر بالصنوبر بعد سفلتته .. الشجيرات يزداد نموها عاما بعد عام .. ترتفع متسقات نحو الاعلى



عيسى الناعوري

ابراهيم الاسطى عمر شاعر ليبيا

بقلم عيسى الناعوري

* * *

في زيارتي لليبيا ذهبت الى مدينة درنة ـ لؤلؤة البحر المتوسط ، كما كان يدعوها الايطاليون ـ وقبل أن نصل الى المدينة قال لي مرافقي الاخ علي الساسي ، المذيع في اذاعة بنغازي ـ وهو من ابناء درنة ـ « انظر هناك على الشاطىء ، هذا نصب تذكاري للشاعر ابراهيم الاسطى عمر ، ابن درنة . لقد جاء هنا يوما وشرب الخمر في حفلة اقامها له بعض رفاقه ، ثم خطر له ان ينزل الى الماء للسباحة ، ولكنه ما لبث ان اصيب بنوبة قلبية وهو يداعب الامواج ، ففرق . وقد اقام له اصدقاؤه هذا النصب المتواضع في المكان الذي غرق بقربه » . ولم يكن في النصب نفسه ما يلفت النظر ، فهو بسيط جدا ، ولكنه مجرد دليل على المكان الذي مات عنده الشاعر .

ولقد أثار مشاعري موت الرجل بهذه الطريقة ، ولكنني لم أكن اعرف ابراهيم الاسطى عمر ، ولم اطلع قط على شيء من شعره . غير ان الاخ الساسي قال لي ان ابراهيم كان من اعظم شعراء ليبيا الحديثة ، وان له شعرا كثيرا يتغنى به الليبيون عامة ، والدرناويون خاصة.

على انني سرعان ما نسيت ابراهيم الاسطى في غمرة زيارتي لدرنة ، ثم للبيضاء من بعدها . حتى دعاني الاخ الاستاذ شريف ليّاس ، مساعد وكيل وزارة الاعلام والثقافة في البيضاء ، لتناول القهوة في منزله. واستلفتت نظري هناك رفوف في زاوية غرفة الاستقبال تحمل كتبا متراصة . فرحت اقلب تلك الكتب ، فوقع في يدي كتاب عنوانه «شاعر من ليبيا : ابراهيم الاسطى عمر» للصديق الاديب علي مصطفى المصراتي . فجلست اقلب الكتاب بسرعة ، فكأنما كان اهتمامي به تحية خاصة الى صاحب المنزل نفسه ، الاستاذ شريف لياس ، فهو ايضا درناوي . وككل درناوي يعتز بهذا الشاعر الدرناوي ، ابن بلده ومفخرتها في الشعر والوطنية والدعوة الى الوحدةالليبية. وصار ابراهيم الاسطى عمر مدار حديث الجلسة كلها ، وقرأنا قصائده المنشورة في الكتاب . فأحببت ان اعرف المزيد عن هذا الشاعر .

وحين عدت الى طرابلس تفضل الاخ الاستاذ علي المصراتي فاهدى الي نسخة من هذا الكتاب ، مع مجموعة اخرى من مؤلفاته .

وما كان لي ، لولا فضل الاخ المصراتي ، ان اطلع على شيء من شعر هذا الشاعر الليبي ، الذي يقف مع زميله الشاعر رفيق المهدوي ـ رحمة الله عليهما ـ في الطليعة الاولى من شعراء النهضة الحديثة في ليبيا ، ولا كان لي ان اعرف شيئا عن سيرة هذا الشاعر العصامي الذي ارتفع بنفسه وبنضاله الشاق من «صبي حطاب» في درنة ، الى نائب في اول برلمان ليبي بعد الاستقلال ، ومن «أمي» لم يتح له الفقر واليتم ان يذهب مع الاطفال الى المدرسة ، الى شاعر يملأ اسماع الليبيين باسرهم بشعره الوطني الداعي الى الوحدة الليبية والمليء بالتأمل، والحكمة ، والوان الشعر الوجداني الاخرى .

صبي يتيم يجمع اكوام الحطب من جبال درنة ، ويبيعه ليحمل ثمنه الزهيد الى أمه التي يعولها ، رغم الطفولة البريئة ، ويعول معها ثلاث اخوات . ثم يترك بيع الحطب ليعمل فراشا في الجمرك ، ثم في المحكمة . حرمته الحياة من المدرسة فأبى ان يظل أميا جاهلا مدى العمر ، وطمحت نفسه الى تلقي العلم رغم العوز وقسوة الحياة المناضلة لاجل الرغيف . وها هو يسعى من شيخ الى شيخ ليتزود بسلاح المعرفة ، حتى يحنو عليه الشيخ عبد الكريم عزوز ، قاضي المحكمة التي يعمل فيها ابرهيم فراشا وساعيا . ويلقنه الشيخ عزوز دروس اللغة والفقه. ومن هناك ينطلق ابراهيم يدرس المعري والمتنبي ، ويطالع الصحف والكتب التي تقع في يده مما يحمله بريد المشرق العربي سرا الى ليبيا الخاضعة للاحتلال الايطالي .

ويتشرد ابراهيم عن الوطن ، فيتنقل فقيرا محروما مدة ثلاث سنوات في سوريا والعراق ، والاردن ، ثم في مصر حيث ينخرط في الجيش السنوسي الذي تألف هناك لحرب التحرير ، ولطرد الايطاليين من الارض الليبية . وفي ديار الغربة ، ثم في الجندية وخنادق الحرب ، ينظم ابراهيم الشعر في الحنين الى ليبيا ، وفي وصف المعارك

الحربية ، وفي الدعوة الى تحرير الوطن ووحدته .

وبعد الحرب يعمل ابراهيم مديرا لمكتب الاستعلامات، ثم قاضيا في المحكمة . ويجيء استقلال برقة عام ١٩٤٨ فيتألم الشاعر البرقاوي ، المنادي بوحدة الوطن الليبي برمته ، ويمضي في دعوته الى الوحدة الوطنية . حتى اذا نالت ليبيا كلها استقلالها عام ١٩٤٩ بقرار من هيئة الامم المتحدة ، ودخلت ولاياتها الثلاث في «المملكة الليبية المتحدة» في ظل عرش الملك ادريس السنوسي ، رشح ابراهيم نفسه للبرلمان البرقاوي عن مدينة درنة ففاز بالتزكيـــة .

ولكنه كان مع الاقدار على ميعاد ، فلم يتح له العمر ان يشترك في جلسات البرلمان باكثر من حفلة الافتتاح . ثم اشترك مع بعض الاصدقاء في حفلة غداء وشراب على شاطىء درنة . واراد الاستحمام في البحر، فدخله نشيطا قويا ، ولكنه لم يعد منه الا الى القبر .

اربعة واربعون عاما : تلك كانت المرحلة التي قطعها ابراهيم الاسطى عمر ما بين المهد واللحد . ولد في درنة عام ١٩٠٥ ، قبل ان يبسط الاحتلال الايطالي ظله الثقيل على ليبيا بستة اعوام ، ومات على شاطىء درنة عام١٩٤٩، بعد ان تقلص ظل الاحتلال الايطالي عنها بنحو ستة اعوام. لقد ولد ليشهد مأساة الاحتلال ، وعاش حتى رأى ذلك الاحتلال يندحر عن أرضه .

ولكن الشاعر الذي كرس قلمه لدعوة شعبه الى الوحدة الكاملة لبلده ، لم يعش حتى يرى الولايات الثلاث ذوات الاستقلال الداخلي ضمن الاتحاد الليبي ، تصبح مملكة واحدة حرة تعيش في بحبوحة ورخاء في الدولة الواحدة ، والعلم الواحد ، والعرش الواحد ، والمركز الواحد للحكم ، بل قدر له ان يقضي قبل تحقيق هذا الحلم باعوام ، حين كان ما يزال في ليبيا ثلاث ولايات ، وثلاث حكومات ، وثلاثة برلمانات ، ضمن حكومة مركزية واحدة تتنقل بين طرابلس وبنغازي لتقيم هنا فترة معينة من الزمن وهناك فترة اخرى مثلها .

كذلك كانت حياة ابراهيم الاسطى عمر القصيرة ، فكيف كان شعره ؟

يجب أن نعترف ، قبل ان نقدم النماذج من شعره ، بأن روحه النضالية ، وقوة عقيدته الوطنية ، والمعاني التي تنثال على خاطره ، كانت أقوى كثيرا من صياغته . فليس في عبارته الشعرية زهوة الشعر وقوة أسره ، بل تغلب عليه «النثرية» و «النظم» . ولكن القوة الحقيقية في شعره هي قوة الروح ، والحس الوطني ، والنضال الحر، والدعوة المؤمنة بحق الشعب الليبي في الحرية والوحدة الوطنيـــة .

والنماذج التي نقدمها في ما يلي اخترناها من اجود شعر ابراهيم عمر الذي بين يدينا ، وتغاضينا عن الضعيف مـن شعـره .

يقول ابراهيم في قصيدة يخاطب بها المستر «ادريان بلت » ، مندوب هيئة الامم في ليبيا :

الى المندوب ـ وهو أجل قدرا   من التذكير ـ وجهت الكلاما
مقالة ناصح حر صريح   يقول الحق لو لقي الحماما
فهذا الشعب كافح ثلث قرن   فلم يذعن ولا القى الحساما
يريد الشعب وحدته ، ففيها   كرامته ، ولا يرضى انقساما
يريد الشعب تمثيلا صحيحا   يصون حقوقه من ان تضاما
ستسمع بعضنا يدعو الى ما   دعا المحتل ... لا تبد اهتماما
فللمستعمرين دعاة سوء   يعدون السموم لنا طعاما
لقد باعوا الضمائر واستعاضوا   بها الالقاب والرتب الضخاما
فلا تسمع مقالتهم ، ودعهم   لما خلقوا ... فقد خلقوا لئاما

وفي قصيدة أخرى يخاطب الشاعر الملك ادريس السنوسي ، عند عودته الى ليبيا على رأس جيش التحرير الذي حارب لاجل حريتها :

آن الاوان فما التاجيل ينفعنا   لنعلن الحق اقرارا وتنبيها
وحقنا وحدة القطرين تتبعها   حرية انت معناها وراعيها

غير ان « فقهية » العبارة تتجلى في اغلب قصائد ابراهيم الاسطى عمر ، سواء في شعره الوطني ام في شعره الوصفي والتأملي وغيره .

نسمعه يخاطب «الطائر السجين» في شعر أشبه بكلام الفقهاء ، فيقول له :

عد بدعواك الى المولى الرقيب   من اذا شاء فما شاء يكون

ثم يمضي في القصيدة عينها فيخاطب الانسان قائلا:

ايها الانسان ، ما ذنب الطيور   نودع الاقفاص ؟ هل كانت جناة ؟
أم تمادت في ضلال وفجور   مثلنا ؟ ما الحكم ؟ اين البينات ؟
ليس في المنقول والمعقول نص   يدعيه المرء في صيد الهزار .

ومثل هذه التعابير الفقهية غير قليل في شعره ، فهو لم ينس كونه «قاضيا» في محكمة حتى في شعره الوجداني ، وفي شعره الوطني . والقضاء يملي عليه العدل وفقا لاحكام الفقه والشريعة ، وابراهيم يعيش «القضاء» حياة وشعرا معا .

على ان اجمل قصائده عندي هي التي عنوانها «جواب» والتي وفق فيها الشاعر مبنى ومعنى وفيها يقول:

قيل : «صمتا» فقلت : لست بميت   انما الصمت ميزة للجماد
ان معنى الحياة : قول ، وفعل   وهي رمز مقدس للجهاد
انما البلبل المفرد يشدو   اينما كان : في الربى والوهاد
ما أظن الاقفاص مهما تمادت   تمنح الطير لذ الانشاد

وهناك قصيدة أخرى مبنية على السخرية اللاذعة ، وقد قالها الشاعر يخاطب احد رؤساء الوزارة في برقة قبل الاستقلال ، بمناسبة استقالته من الوزارة . وفيها يقول الشاعر ساخرا :

وداعا سيدي الباشا وداعا   فبعدك الهب النفس التياعا
وتركك للوزارة « تحت ضغط »   يعز على الجماعة ان يشاعا
وتلك «خسارة» لا شك فيها   وركن «للمصائب» قد تداعى
ستذكرك البلاد بكل فخر   متى انتزعت سيادتها انتزاعا
ستذكر انك الداعي لحلف   مع المحتل ، وهو اشد باعا

اللمسة الاخيرة

راحتك الصغيرة .. الصغيرة
صافحتهـــا
للمرة الاخيرة

أودعتهـا .. وراحتي تتركها
عمـرا مضـى
فـي رحلـة قصيـرة
مهمـا تطل بظله ساعاتنا
فانهـا نزيـرة .. نزيـرة

وقصتي .. كقصـة الحياة
ان تحـل
فكيمـا تستوي مريرة

تبدأ بالقلـب هتوفا .. صارخا
تحوطـه أعيننـا القريرة
وتنتهـي
وقـد سـرى بـه الونـى
تحفـه أدمعنـا الغزيـرة

جزيـرة جـرداء
كـان عهدهـا خضراء
مثـل الاعيـن الخضيرة

فـي صحـو يـوم
كـان لي في حرجهـا عرش
وكانت لـي بهـا أميـرة

رأيتهـا كالحلـم
ساعـة الـوداع
حيث كانـت مقلتـي
حسيـرة

خيلـت أني مستعيد عهدهـا
فارسل الارعاد لي نذيرة

ولحظـة مرت سريعا بيننا
لكنهـا عسيرة
عسيـرة

هذي العيـون
ما لهـا تنهشنـا
لـو تستوي جميعها ضريرة

لـو انجلى بريقهـا
لـو انجلـت
هذي العيون الجهمة الكثيرة

لـو احتوانـا القفر
حتـى لا نـرى هذا البريق
يستغـل نـوره

أتذكريـــن ..
لا .. بحـق ساعة
ودعت فيها الراحة الصغيرة

لا تذكـري
فقسـوة .. أن تذكري الحياة
في سويعتي الاخيرة

القاهرة — محمد محمود عماد

ستذكـر انـك المهتم حقـا	بهـدم بنـاء وحدتنـا اقتناعا
فتلكمن «المآثر» ـ وهي كثر ـ	ولـو ذكـرت لاعجز اليراعـا
فراقـك قـد يعـز على انـاس	رأوا فيـك المدبر والشجاعا
ودكتاتـور برقـة مستبـدا	يكافىء بالوظائـف من اطاعـا
يهـدد مـن يقـول الحق جهرا	ويضرب بالخناجـر ما استطاعا
وحقـك قـد حزنت عليك فعلا	كحزن الطفل اذ حرم الرضاعا
لانك مصدر للشعر ، اخشـى	اذا ما غبـت يمتنـع امتناعـا
فمثلك نـادر فـي مـن عرفنـا	مـن الحكام كبرا وانخداعـا
تنفس بعـدك الصعداء شعـب	صريـح لا يبادلـك الخداعـا

لقد استطاع ابراهيم الاسطى عمر في هذه القصيدة ان ينفس عن غضبته الوطنية على الرئيس المستقيل الذي كان يدا للاحتلال الاجنبي على الشعب الليبـي ، وكـان تنفيسه هذا سخرية لاذعة لطيفة ، هي أقسى من كـل هجوم مقذع ، ومن كل سباب وشتم مما اعتاده شعـراء السياسـة عندنـا .

وانا افف عند هذا الحد ، وحسبي انني استطعت ان انوه بشاعر ليبي يستحق التنويه . وشكـرا لاخـي الاستاذ علي مصطفى المصراتي على كتابه الذي عرفنـي بهذا الشاعر وشعـره .

عمـان — عيسى الناعوري



محمد رجب البيومي

البكري الشاعر

بقلم محمد رجب البيومي

— ٢ —

وقد اشتهر قوله في وصف بعض الابسطة :

بسط أجاد الرسم صانعها وزها عليها النقش والشكل
فيكاد يقطف من أزاهرها ويكاد يسقط فوقها النحل !

حتى كثر الاستشهاد به في كثير من المناسبات ، ولكن الذي يعجب كثيرا وصفه لبعض الالعاب النارية التي تطلق في المواسم والاعياد قذائف ملتهبة تنفجر في الجو عن شرارات تشكل ألوان الطيور والزهور والثعابين ، فقد رسمها الشاعر رسما جميلا حين قال :

فمن شهب تمتد في الجو مصعدا وتلوي على جنبتيه مثل الاراقم
وتمطر فيه لؤلؤا وزبرجدا شآبيب منها ساجم بعد ساجم
فطورا ترى ان السماء حديقة نفتح فيها النور بين الكمائم
وحينا ترى أن الحدائق في الدجى سماء تهاوى بالنجوم الرواجم

وجدة الموضوع دون شك هي التي باعدت بينه وبين المحاكاة التقليدية في البيتين الاخيرين فجاد خياله بالطريف الجميل ، أما كبرى قصائده الوصفية فهي قصيدة «مصر» التي نظمها بباريس متشوقا الى وطنه ، وقد ابتدأها بقوله :

أديار مي تنظر فدموع عينك تمطر
أم أبرق العلمين أم سفح اللوى تتذكر
أم قام قلبك جؤذر أحوى المدامع أحور
أم هب من مصر صبا أم طار برق أشقر !

وقد انتقدها مطران في دعابة فكهة حين قال عن السيد « ومن لطائفه أنه رأى عيون مي في باريس» (١) قاصدا بذلك انه لا يحيد عن النهج التقليدي في شعره ، أما الاستاذ العقاد فقد قال عنها « لقد اشترك في هذه القصيدة ناظمان أحدهما يغلبه احساسه وثانيهما يغلبه تقليده ولم يمتزج نظماهما حتى يخفي عنصراهما بين الالفاف والاطواء بل لبث كل منهما على حدة ترى أين بدأ وأين انتهى وكأنهما عشيران متلازمان لا يلتفتان فنيت احداهما في الاخرى فتعذر التفريق بين ما تصنعان (٢) .

وتفسير كلام العقاد كما أرى ينحصر في خلاصة ما ذكرته من قبل من ابتداء القصائد بالمحاكاة التقليدية حتى اذا نشطت النفس للقول فاء الشاعر الى عواطفه فنقل عنها !! وهذا واضح في اكثر ما قاله تلاميذ البارودي لا يختص به البكري وحده ! بل أن ظواهره قد ظلت عالقة بشعر شوقي حتى بعد رجوعه من منفاه وقصيدته عن مشروع ملز شاهد صادق على ذلك اذ بدأها بقوله :

اثن عنان القلب واسلم به من ربرب الرمل ومن سربه

وما زال يروض القريض ويستجيش الخواطر حتى اندفع الى موضوع القصيدة، فليس هنا وهناك ناظمان مختلفان ـ كما ظن العقاد ـ ولكن انصداع الوحدة الشعرية في الادب التقليدي هو الذي يسبب هذا الاختلاف !! أما الوصف الشعري في قصيدة البكري فقد غلبت عليه المرئيات المحسوسة كشأنه في نثره ! وقد تضطر ان تقرأ له في عجلة سريعة مثل قوله :

أم قد ذكرت بطاحها وهي البساط الاخضر
والنيل في لباتها عقد يلوح مجوهر
والجو صحو مشرق وكأنما هو ممطر
والظل في خلل الشموس مدرهم ومدنر
وغصونها لدن تميل بما تغل وتثمر
فكأنهن ولائد في حليها تتكسر

او مثل قوله في وصف حديقة الحيوان :

فالجيزة الخضراء يعبق رندها والعبهر
فيها النعامة والحبا رى والمها والقسور
كسفين نوح أظهرت ما كان فيها يضمر
وترى الغصون على الارائك تلتوي فتشجر
وجداول كسبائك بسنا الاصيل تعصفر
ماء كبلور يذوب وأدمع تتقطر
يروي القطا الكدري منه وينتجبه الجؤذر
في حافتيه الورد والنسرين والنيلوفر
وعليه من نسج الصبا درع هناك ومغفر

ولكنك تقف متمهلا مستأنيا تعيد ما طالعت ، وتتأمل ما قرأت من مثل قوله من القصيدة في وصف قصر المتحف !

فالقصر وهو لمن مضى من أهل مصر مقبر
نشرت به أمواتهم فكأنما هو محشر
رمسيس أين مطارف الديباج أين الجوهر
أين السرير وأين تاج الملك أين العسكر
نم في رقاد ليس في أحلامه ما يذعر
فالموت نوم أكبر والنوم موت أصغر
دنيا تشابه ملعبا والليل ستر يستر
والفصل يضحك والثريا الشمس فيه تنور
جند هناك وسوقه ومتوج ومسخر
فاذا طرحت ثيابهم ساوى الاعز الاحقر

هذا هو الشعر الناقد حقا ! ولعل روعته كانت وليدة حكمة مختبئة في نفس الشاعر ، تراكمت عليها أطباق فوق اطباق ، فهو لا يغوص عليها في أعماقه ، وانما يشتغل عنها بالمحاكاة والاسترسال مع الجزالة المقدسة الى اخر الشوط ، وهي بعد كامنة في نفسه كمون النار في الحجر ، وقد كانت من القوة والحيوية بحيث استطاعت ان تثبت وجودها الحي في اكثر من مقطوعة ! حتى عجب لها دارسو أدب البكري ، ووقفوا موقف الدهشة الحائرة اذ رأوا مثل قوله :

أشعرة بيضاء أم أول خيط الكفن

أم تلك سهم مرسل … لا يتقي بالجنن
والزرع ان هاج فقد … حان الحصاد وأني
ففي سبيل الله ما … عانيته من زمني

أو قوله :

ان أحرجوا صدرك لا ينبعث … للقدح بالفحشاء أو مثله
ففضبة الاحمق في قوله … وغضبة العاقل في فعله

أو قوله :

لا تعجبوا للظلم يغشى أمة … فتنوء منه بفادح الاثقال
ظلم الرعية كالعقاب لجهلها … ألم المريض عقوبة الاهمال

أو قوله :

وفي وسعة المرء نيل العلا … وقد يمنع المرء ما يمنع
صغير من الامر يلهيه عن … بلوغ العظائم او يقطع
كعين تحيط بهذا الوجود … جميعا ويحجبها اصبع

وقد يقال ان الشاعر قد استهدى بغيره في بعض هذه النظرات الصادقة ، فأبيات الشعر البيضاء مقتبسة مما نقله في فحول البلاغة ص ١٧١ من قول الشاعر :

لما رأيت البياض حين بدا … فيأسود الشعرصحتوأحزني
هذا وحق الاله أحسبه … أول خيط سدى من الكفن

وأبيات الرعية المظلومة مقتبسة مما حكاه السيد في « مستقبل الاسلام ص ٣٩ من قول فولتير «الظلم الواقع على الامة عقاب لها على جهلها » . وكذلك ما جاء من قوله السابق :

فالموت نوم أكبر … والنوم موت أصغر

فانه مقتبس مما نقله السيد عن أبي العلاء في فحول البلاغة ص ١٧٩ :

الموت نوم طويل لا هبوب له … والنوم موت صغير بعثه أمم

وهذا نقد صادق ولكنه لا ينقص من مقدرته ، اذ ان الشاعر لا يغتصب المعنى كما جاء ، بل يضيف اليه من توليده ويلبسه من صياغته ما يبرزه في مظهر أجمل من مظهره الاول وأتم .. وقد كانت كتب النقد العربي القديم التي قرأها السيد واعتنق آراءها الادبية ترى ان عرض المعنى القديم في صورة أوفى وأتم مما يحسب للشاعر لا عليه ، ولا يمكن ان يدخل في باب السرقات الا اذا اظهر في صيغته لا ترتفع الى الصيغة الاولى ، ومع اتساع المجال لمناقشة هذه القضية فاننا نرى السيد في اقتباساته أشبه بالفاتح الظافر الذي يأخذ المدينة بجيشه القوي وليس بالسارق الذي يسطو خفية على المنازل ثم يتسلل هاربا في جنح الظلام ! اقرأ قول أبي العلاء مثلا :

مل المقام فكم أعاشر أمة … أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها … فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

ثم اقرأ معه قول السيد البكري :

والناس يخشون من جاه المليك وما … لديه لولاهم في ملكه جاه
كصانع صنما يوما على يده … وبعد ذلك يرجوه ويخشاه

فان الثورة على الامراء في القولين واضحة صريحة ، ولكن قول السيد مما لا يجوز ان ينسب لابي العلاء مهما اتفق الغرض ، اذ ان اتحاد الاحساس لدى الشاعرين ، قد برز في أسلوبين مختلفين ويخيل لي أن السيد كان في هذه الثورة أعمق شعورا من صاحبه ، اذ لم يكتف بالاسلوب التقريري مثله بل الحقه بصورة حية تنفض للقارىء ما يختلج بصدره من نقمة على الرؤساء وأسف على الخانعين الخاضعين، هذه الصورة هي التي تجعل السطو غزوا ظافرا تغتصب به المدينة عن أيد ، لو افترضنا ان البكري قد حاذى ابا العلاء ، ولكن ما نعلمه من تأصل الثورة على الحاكمين في نفس السيد ، يجعلنا نرفض فكرة الاقتباس من المعري اذ لا تقوم عليها شواهد الحال لدى كاتب كرر فكرته هذه اكثر من مرة وعالجها بالنثر تارة وبالشعر تارة أخرى ، فهو انسان يصف تجربة تأخذ عليه الخناق حين يدور بعينيه فيرى ما يكره من سطوة المتجبر في رعيته وعبثه في الارض بالفساد! واذا كنا قد طالعنا في الباب السابق نموذجا لما قال السيد في ذلك من النثر فاننا ننقل هنا مثالا آخر من شعره يقول فيه :

حمق الأولىيحكمون الناسيضحكني … وسوء فعلهم في الناس يبكيني
ما الذئب قد عاثبين الضانأفتكمن … هذي الولاة بهاتيك المساكين !

وهذان البيتان وأمثالهما نظرات شعرية حكيمة ، لو فتش السيد بين أطوائه لوجد لها نظائر كثيرة في صدر يجيش بالالم وقلب ينبض بالشعور ، وعقل يتأمل في دقة واستبصار ! ولعل هذه الخطرات الذكية هي التي دفعت الاستاذ خليل مطران الى ان يقول في ختام حديثه عن البكري « وللسيد من المقاطيع الشعرية ما لا يدع في معناه مقالا لقائل ، ولا مجالا لجائل ، فلو جارى في كثيره قليله لاصبح قطبا من أقطاب الزمان في الجمع بين البلاغة والبيان (٣) .

فاذا تركنا الوصف الحكيم الى الغزل في شعر السيد ، رأينا نضوبا شحيحا نقف لديه في حذر ، وقد أخطأ الاستاذ عمر الدسوقي تعليله حين زعم أنه « اذا كان مثل البكري رجل دين وسيدا من الاشراف الذين يحتلون منزلة رفيعة كان من الطبيعي ألا يستجيب في شعره لكل ما ينفعل له وجدانه ، ولهذا لا نرى للبكري غزلا عاطفيا قويا وانما هو نسيب يأتي به في أوائل القصائد محاكاة للاقدمين في طريقتهم وتشبيهاتهم ووقوفهم على الاطلال من غير أن تكون ثمة اطلال ص ٣٦٩ (٤) .

ثم ينهي حديثه قائلا « وفيما عدا هذه الابتداءات لا ترى للبكري غزلا أو تشبيبا في المرأة تزمتا منه وحرصا على مكانته في المجتمع وهو الحسيب النسيب ، وشيخ مشايخ الطرق الصوفية ص ٣٧١ (٥) .

نقول لقد أخطأ الاستاذ عمر الدسوقي في تعليله ، لان السيد البكري كان يقول كل ما يريد دون تخوف من لائمة العوام والاميين ، فقد وصف الخمر وتأثيرها الجسمي والنفسي وصفا نثريا رائعا في صهاريج اللؤلؤ دون ان يخطر في ذهنه أنه شيخ مشايخ الطرق الصوفية كما وصف رقصات الحسان ومباهج الشراب في النمسا وباريس بما يبعد عنه مظنة التحرج والتأثيم ، وكثير من مختاراته الشعرية في فحول البلاغة تصف لذة الخمر وائتلاق الحسان ! بل انه نقل عن ابن الرومي في هجاء بوران ص ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ما يتورع عن روايته استاذاه الشنقيطي وحمزة فتحالله ! ثم زاد فاختار شعرا يمثل الاتصال الجنسي بين الرجل والمرأة ص ٧٨ من الفحول ، ومن يقول هذا القول النثري في الخمر والحسان ثم يختار من الشعر ما يتورع عن روايته المتأثمون لا يمكن ان نقول عنه ما قال الاستاذ عمر الدسوقي من « أنه امتنع عن التشبيب حرصا على مكانته في المجتمع وهو الحسيب النسيب وشيخ مشايخ الطرق الصوفية » بل نقول ان ظروفه العاطفية كانت من الهدوء والسكينة بحيث لم تتح له أن ينصهر في مأساة أو ينساق الى تجربة تؤرق جفنه وتطلقه بالحنين ! وكيف يكون الغزل مما يشين في منطق السيد البكري وهو يعلم ان كبار الفقهاء من أمثال عروة بن أذينة وعبيدالله بن عبيدالله بن مسعود وابن حزم وابن داود كانوا يترنمون برفيق النسيب وفاتن الحنين ! وأن الشريف الرضي نقيب الاشراف في عصره ، وشيخ العلويين قد ملأ ديوانه بالحنين ، وقد قال في الحجازيات ما ذاع في تقدير واستحسان ! ولم يقل أحد ان نقيب الطالبيين أساء حين تغزل وهو يرمي الجمار ويؤدي المناسك في منى وسلع والخيف !! على أن السيد قد عالج النسيب بما يدل على تعرضه لهبة قصيرة من هبات الشوق ! فان قصيدته ذات القوافي تتضمن مع الغزل المصنوع خواطر صادقة مطبوعة ، فاذا كنا لا نلتفت الى مثل قوله في ذات القوافي :

وساورني الحب حتى ثوى ... كأيم على مهجتي ملتوي
وما الحب الا كروض غدا ... بغير المدامع لا يرتوي

وقد هجرت مقلتاي الكرى ... كأن بهدبي رؤوس الابر
ولو كان ما بي بهذا الغمام ... لأمطر بالجمر أو بالشرر

فجسمي أصبح كالشمع يفنيه ... سكب الدموع ووقد الحرق
فلا ألبس الثوب الا وجسمي ... من تحت ثوبي كثوب خلق

فاننا نلتفت جيدا الى مثل قوله :

أسير ولا أرتضي بالعتاق ... ومضني وأجزع ان أبرا
وان سلمت خلتها ودعت ... وأحسب مقتربي منتآى

اذا كنت وحدي أكون واياك ... او خاليا فاشتغالي بك
وأطلب المجد والمكرمات ... لتحسن لي شيمة عندك

ليحنو قلبك رفقا علي ... فالصخر بالماء قد ينبجس
وصوني الوداد وفيه الذماء ... فلن يورق العود اما يبس

لمية خد به وردة ... تفتحه نظرة أو خجل
وقد تضيف اذا ما تثنى ... يخال به رنح أو ثمل

ووجه اذا ما نظرت اليه ... نظرت لوجهك في مائه
وجفن ترنقه فترة ... كمستيقظ بعد اغفائه

زمان اذا ما تذكرته ... تخيلته حلما في الكرى
وعهد الشباب كرؤيا اذا ... مضت أدركتها نفوس الورى

فنحن لا نلتفت الى المجموعة الاولى مثل التفاتنا الى المجموعة الاخيرة ، اذ ان الشاعر كان حاكيا ينقل عن غيره في الاول ، اما في الاخيرة فقد هبت لفحة يسيرة توحي بصدقه فجاء بما نظن أنه خالط نفسه فعبر عنه صادقا ! وهكذا يصدق البكري كثيرا مع نفسه في الشعر اذا تخفف من الجزالة بعض الشيء وساق معانيه في هدوء ينأى بها عن الجلجلة والصليل ... وقد كان تنوع القافية في هذه القصيدة وثبة جريئة من شاعر محافظ كالسيد البكري ، كان يظن به أنه أول المتمسكين بهذا القيد الاثري ! اذ ان حرصه على الديباجة العربية لا يكتمل في مظهره الاصيل دون التمسك بالقافية ، ولكن تعمده التنصل من لزوم القافية كان اصرارا حادا لا نعلم دوافعه القوية حتى أنه سمى قصيدته هذه «ذات القوافي» وهي تسمية تبعد عن موضوع القصيدة وتتجه الى شكلها الخارجي الذي اتجه اليه السيد باصرار ، وكان هذا الاتجاه المفاجىء مدعاة لخطأ هام وقع فيه ناقد كبير كالاستاذ عباس محمود العقاد حين أعلن ان السيد البكري اول من نوع القافية في العصر الحديث ، فقال في مقال نشره بالعدد ٥٤١ من مجلة الرسالة سنة ١٩١٣ تحت عنوان في الشعر العربي .

« والذي نذكره على التحقيق ان الابتداء بالشعر المرسل في العصر الحديث محصور في ثلاثة من الشعراء لا يعدوهم الى آخر وهم السيد توفيق البكري ، وجميل صدقي الزهاوي وعبد الرحمن شكري ، ولكني لا أذكر على التحقيق من منهم البادىء الاول قبل زميليه ، ولعلي لا أخالف الحقيقة حين أرجح ان البادىء الاول منهم هو السيد توفيق البكري في قصيدته ذات القوافي ثم تلاه الزهاوي في قصيدة نشرت بالمؤيد فعبد الرحمن شكري في قصائد شتى نشرت بالجريدة ، وجمعت بعد ذلك في دواوينه » .

وموضع الخطأ في كلام الاستاذ العقاد ان الابتداء بالشعر المرسل في العصر الحديث لم ينحصر في هؤلاء الثلاثة على الاطلاق ، بل تقدم زمانهم بأكثر من عشرين عاما حين نشر احمد فارس الشدياق بعض شعره بالجوائب في قواف متنوعة فكان أول من نحا هذا النحو عن يقين ، ثم جاء سليمان البستاني فنظم الياذة هو ميروس شعرا تحرر فيه من نير الوزن الواحد والقافية الواحدة مبتدئا في عمله سنة ١٨٨٧ ومنتهيا منه سنة ١٨٩٥ وقد عمد الى الموشحات والاراجيز والمخمسات وضروب أخرى كالمثنى والمربع والمثمن في نظمه الطويل الا ان مكان الاستشهاد في صنيعه هو التحرر من القافية في اكثر ما نظم ، وهو عمل ضروري لم تكن لتتم ترجمة الالياذة شعرا بدونه ! ثم اشتهر سليم عنحوري بشعره المتحرر قبل ان يقول البكري ذات القوافي ، ودعا نجيب الحداد اكثر من مرة الى الخلاص من القافية دون ان يعمد الى ذلك فيما نظم من الشعر ، فالقول بأسبقية البكري الى تنويع القافية فضل ساقه الاستاذ العقاد الى السيد توفيق عن سهو غير مقصود ! ونحن في هذا المجال لا نجرد السيد البكري نهائيا من الفضل ، فحسبه أن يكون بين من ارتضوا تنويع القافية ، مع مبالغته الشديدة في ترسم نهج الفحول من السابقين ! وقد يكون في ذلك مفارقة نادرة لدى من درس ميول السيد وتتبع كلاسيكيته الاسلوبية ! وهي مفارقة تجيز لنا أن ننتظر الشيء حينا من غير بابه ، أو أن ننتظره على الدقة حينا من بابه البعيد القصي ! فمهما يكن من تمسك الرجل بعمود الشعر وطريقة الفحول فقد يكون تنوع القافية هو جل ما تأثر به من ثقافة الاوروبيين!!

هذا ولم يعرف للسيد غرض آخر من أغراض الشعر في غير ما سبق من الوصف والرثاء ، والمديح والحكمة ! وأكبر ما أخذ عليه في نظمه هو عين ما أخذ عليه في نثره وهو اقتباس معاني غيره من مثل قوله في قصيدة مصر :

والجو صحو مشرق ... وكأنما هو ممطر

فانه مختلس من قول أبي تمام :

مطر يذوب الصحو منه وبعده ... صحو يكاد من النضارة يمطر

وقوله منها :

وتظن أحياء به ... فتمس كيما تخبر

فهو بعينه قول البحتري :

يفتلي فيهم ارتيابي حتى ... تتقراهم يداي بلمس

وقوله من قصيدة ذات القوافي :

وأرتاح اما تمنيتها ... ويا رب أمنية كالظفر

فهو من قول أبي الحسن التهامي :

أهتز عند تمني ذكرها طربا ... ورب أمنية أحلى من الظفر !

وكل ذلك وأكثر منه لم يخل منه شاعر من شعراء البعث في زمن البكري ممن ركنوا الى دواوين السابقين ، وكادوا يتعبدون بها معنى ومبنى ، واذا شئت فقل انه طراز العصر ونظامه فلا مؤاخذة ولا اتهام ومن الطريف الملحوظ في هذا المجال ان الشاعر الكبير الاستاذ احمد محرم قد نشر بحثا نقديا تقدمت الاشارة اليه عن البكري بأبولو (٦) ، وقد تعرض فيه الى قصيدتين من قصائد السيد توفيق ليرد بعض معانيهما الى السابقين وهو منهج لو طبق على الاستاذ محرم لما نجا شعره من بعض ما أخذ على صاحبه ، وننتهز هذه السانحة لنختار من نقدات الشاعر ثلاثة مآخذ تدل على طريقته ونراها تحتاج الى تعقيب .

١ ـ قال السيد البكري في مطلع قصيدته التي مدح بها عبدالحميد:

أما ويمين الله حلفة مقسم ... لقد قمت بالاسلام عن كل مسلم

---

(١) مختارات المنفلوطي ص ٧٤. (٢) شعراء مصر للعقاد ص ٦٥ .
(٣) مختارات المنفلوطي ص ٧٥ . (٤) ، (٥) في الادب الحديث جـ ٢ .
(٦) سبتمبر سنة ١٩٣٢ .

التحدي

●

الريح تعصف والسماء تميد   وجموح أفئدة النساء أكيد
ومجامر الاعطاف ثار رمادها   فالشوق يطفى والحنين يزيد
ومدامع العشاق جف قريحها   حتى م اصمد والطريق بعيد

لا لن تحطمني وبين جوانحي   قلب بحبك مدنف وعميد
لكنه قبل التحدي راضيا   هو لن يذل فوعده تنديد
ان كان غرك نظرة مفناجة   نمت بها عيني فذاك وعيد

لا لن تحطمني برغم عواطفي   فانا وانت على الطريق وحيد
كل يحاول ان يصارع غربة   أبدية عل الصراع يفيد
حتى م نطفى في التحدي والغوى   فيما نكابر والنداء عنيد

لا لن تحطمني فانت محطم   أرداك طرف فاتر رعديد

دمشق   **سلافة العامري**

فقال الاستاذ محرم :

(مقسم في الشطر الاول من البيت لا معنى لها فلو أنه قال (حلفة صادق مثلا لكان أمثل ولكنها القافية) !

ونحن نقول ان قول البكري حلفة مقسم صحيح لا اعتراض عليه فليست ألفاظ الشعر كألفاظ الصيغ القانونية مما لا بد فيه لكل كلمة من معنى جديد ! بل أن تآخي المتواردتين في معنى واحد في الاسلوب الادبي مما يكسبه قوة ايحائية آسرة ، وقد قال الشريف الرضى في مثل ذلك :

كأن الليالي كن آلين حلفه   بالا يرى فيهن شمل مؤلف

فذكر الحلفة بعد قوله آلين ليؤكد المعنى ويقويه دون اعتراض .

٢ ـ وقال البكري :

له في الاعادي حملة يعرفونها   وأكبر منهـا حملة في التكرم

فقال محرم : في هذا البيت نظر الى قول المتنبي :

هم المحسنون الكر في ساحة الوغى   وأحسن منه كرهم في المكارم

ولو قال محرم ان هذا البيت نظر الى قول البحتري :

بنفسي نفوس لم تكن حملة العدى   بأقسى عليها من وقوف التكرم

لقارب وسدد ! فبيت البكري به أمت والصق وقد نقله في الفحول.

٣ ـ وقال السيد البكري :

أصبح وادي الفرقد   أخضر كالسيف الصدي

فقال محرم في هذا البيت خلل من جهة التشبيه فهم انما يشبهون الماء اذا علته الخضرة بالسيف يعلوه الصدأ وهذا واضح مستقيم. أما تشبيه الوادي المخضر أو نحوه بهذا السيف فغير مقبول ولا متقارب !

وقد نسي الاستاذ محرم ان الوادي في قول البكري هو مجرى الماء ، جاء في المصباح جـ ٢ ص ٩٠٠ « وودى الشيء اذا سال ومنه اشتقاق الوادي وهو كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذا للسيل » واذن فالمشبه هو الماء الذي علته الخضرة لا الزرع الاخضر كما ظن الناقد ، واذا كان الاستاذ محرم قد بالغ مبالغة مفرطة فيما عده اقتباسا مقصودا عناه السيد ، فانه قد أنصف صاحبه انصافا عادلا حين قال عنه في مفتتح حديثه « اول ما يلقيه البكري في روعك وهو يطالعك بأدبه أنه شاعر فحل وكاتب كبير ، وانك لتبقى معه في هذه الحال وعلى هذه العقيدة وان جال في نفسك أو قام في ناحية منها أنك مغلوب على رأيك أو مضطهد في شعورك وحكمك ، في ادب البكري قوة مستبدة ، عليها كثير من جلال الادب وفيها شيء غير قليل من عظمته وكبريائه فانت حين ترى فيه مكانا للضعف لا تلبث ان تدفعك هذه القوة الى الامام وتصيح في وجهك بصوتها الذي يشبه هزيم الرعد « سر ولا تقف » فانت تحب ان تسير وتكره ان تقف !!

أجل لقد كان البكري شاعرا فحلا ! نهج في نظمه النهج الذي وافق جيله وبيئته ولئن تخلف عن القول في بعض ما تعورف اذ ذاك من أغراض الشعر ومناحيه ، فحسبه أنه لم يصدر فيما قال الا عن رغبة صادقة تجد حوافزها من نفسه بل حسبه أن يكون اول من ثار من الشعراء على بعض من يخافهم الكثيرون من الحاكمين ..! وهذا ما يحسب له دون نزاع ..

الفيوم ـ دار المعلمات   **محمد رجب البيومى**

من وحي الاندلس

للشاعرة سلمى الحفار الكزبري

ترجمها عن الفرنسية

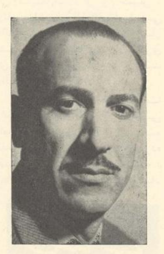
سعد صائب

دمشق

•

هدهدي يا «ماريا» ألمك
هدهديه وارقصي ، وتذوقي الحان الموسيقا
ودعي محياك المربد ، تنبسط أساريره
كيما تخلد الازمنة الخالية
وتظل الايقاعات والاغاني
حية بفضل فنك !.

بيد أني أراك الساعة ، برغم الوردة التي تزين شعرك
وبرغم بهجة هذا الحفل الليلي
وبرغم زهوك وكبريائك
أراك برغمها حزينة كل مساء !.



سعد صائب

فلامنكو !.

ارقصي أحزاننا السرمدية
روحي عن نفسك ، أيتها الغادة المتمردة
روحي عن همومك ،
روحي عن أوصابك
التي تنوء بها أهدابك السمر !.

رفي بزنديك وبنانك وروحك
رفي بها رفيف أجنحة الطير ، وانعكاسات اللهب
أيقظي الربيع ، أيقظي هذا الربيع المذهل لسنيك العشرين !.

ارقصي وابعثي الدفء في الليل الرهيف
تلملمي وثبي ونادي ، لعل النجوم الصم
تهب لنجدتك !.

أحسني مداعبة الصنج
احلمي ، انتفضي ، واذرفي الدمع
احتجي ، تاوهي ، والعني بين ثناياك
الحظ ، والردى ، والفن ، والزمن !.

تفتحي ، وارقصي ألمك
وعزي نفسك في هذا المشهد .
دعي غدائرك الزرق تهمي
انت يا اندلسية
انت يا ذات العينين الملتهبتين !.

ان هفيف غلالتك
وهمسات شعرك المرسل
ليوحيان ، اما انتصف الليل
بتململ الصفصاف الباكي وتوجعه !.

ارقصي مفاتن اسبانيا
التي تكرمينها بفنك
فالشيب يكل ابدا
أن يخط أمجاد وطنك وعرقك !.

ألا ان حنين ظلال محياك ليفتننا
بيد ان القلق يساورنا
فدعينا نلمح ولو بارقة امل
في نظراتك السود المخملية !.

ارقصي الحان ارضك
ارقصيها من «قرطبة» المترعة بالاسرار
لكاني اسمع الساعة «زرياب» وأصداء أغانيه
وهما يتجاوبان بعد ان ضمهما اطار الفلامنكو!
لكاني أسمعهما يتجاوبان في الكلمات المثيرة
في عزف القيثارة وفي شكوى المغني

هدهدي ...

ارقصي ...
ارقصي البهجة الآفلة
التي تتبدى في قسمات المبعدين في الارض
أضربي الارض بقدميك
تحدي السماء بناظريك

عاصفة !

بينا كنت أسير على درب قدري المجهول
أنا الكاعب المتألقة بالحياة
أنا الوحيدة المفتونة بالكون
كنت اداعب في أعماق قلبي
بصيصا من هناء !.

لكم من أزاهير على دربي
تبسمت لي بكل تفتحها !
وكم من حصى وحجارة
بددت أحلاما حلوة تداعبني !
ولكم ذرف قلبي العبرات
لحرمانه من شتيت المفاتن !
ولكم بث الخوف ورعشاته
نياط أغاريدي العذبة !
بيد أني أمعنت في سيري
أمعنت في دربي الطويل
ألوي الخطى خلف قدري
غير مبالية بغدي .
واذ أقبل الغد دهمتني عاصفة هوجاء
بيد أنها بالرغم من عتوها وهولها
كانت لي سبيل الخير والغوث !.

لقد هزت العاصفة نياط حناني الغامر
فحطمت الحصى والحجارة
وجعلت الامل يجثو أمامي
وبعثت العطر في الورد
فازهرت الدنيا في عيني
وجفت العبرات التي يذرفها قلبي
بعد أن أثارت فيه الدفء والرجاء !.

وفي هزة فرح وحميا نشوة
راح قلبي يتمتم هذه الجملة !
« أحمدك يا ربي !
أحمدك يا ربي ! »
وحين رفعت ناظري الى السماء
خلتني ألمح صورتها
فرحت أهتف : أتراني في حلم ؟
أم تراه سرابا خلبا ؟.
وما عتم ان تادى الى سمعي
صوتها الصافي ، نداؤها الاليف
هاتفا بي من بعيد :
« لا تذرفي العبرات بعد اليوم
واذكري جيدا اني روحك
التي ردت اليك ! » ..

ـ خمسة قروش يا رب ..

وتلوى قلب الصبي بعد ان هتف بينه وبين نفسه بهذا الدعاء .. واحس بدوار وتعب فاسند جسده المكدود على جذع شجرة ، ثم اخذ يرمق الناس في اعياء واحساس بالغ بالشقاء .

هل خلت قلوب الناس من الرحمة؟ .. لقد توالت ساعات ذرع خلالها معظم شوارع الحي ومع ذلك لم يدخل جيبه غير اربعة قروش التهم بقرش منها «طبق كشري» فقد خرج من بيته جائعا لان طعام افطاره كان كسرة خبز وقطعة جبن «قريش» صغيرة .

وعض الصبي على شفته السفلى .. يسترجع في خياله ذكريات الايام الجميلة التي عاشها قبل اصابة وأخذ يسترجع في خياله ذكريات الايام عليه في ثلاثة اشهر ..

كان افطاره فول بالزيت والطحينة ، وجبن ابيض من نوع فاخر !! وكان بعد ان يفرغ من التهام طعامه يأخذ من ابيه قرشين صاغ كاملين ، ثم ينطلق الى المدرسة فرحا لا تثقل قلبه اية هموم .. وبعد انتهاء ساعات الدراسة يعود الى البيت فيجد طعاما شهيا .

واستشعر الصبي حزنا هائلا يتدفق في قلبه الصغير . بموت ابيه ضاع كل شيء .. مضت الايام الحلوة ولن تعود . اخرج من المدرسة ليشتغل ماسح احذية .. كما اشتغلت امه خادمة في بيوت الناس .. وزفر الصبي بحسرة .. ثم حانت منه التفاتة الى رجل حسن الملبس فهرول اليه ..

ـ تمسح يا بك ؟

فأشاح الرجل بوجهه وهمهم قائلا :

ـ لا .

وارتسمت في عيني الصبي نظرة استجداء ..

وزمجر الرجل قائلا :

ـ قلت لك لا .

وانصرف الصبي عنه في غيظ ..

لماذا تجهم وجهه هكذا .. كأنه قد طلب منه صدقة .. لقد خلت قلوب الناس من الرحمة ..

ماذا يفعل ؟ .. اهكذا ستتوالى الساعات وليس في جيبه غير ثلاثة قروش .. حظه اليوم عاثر .. يارب .. اني لا اطلب غير خمسة قروش .. خمسة قروش فقط يا رب .

ورفع الصبي راسه فالقى نفسه امام دار سينما .. فمضى اليها في تثاقل وحزن . ووقف يتطلع في شغف الى لوحة اعلانات فيلم الاسبوع .. المصيدة ؟ .. فيلم ليته يشاهده .. ولكن ماذا يفعل ؟ .. ليس في جيبه غير ثلاثة قروش فقط .

وتزايد احساسه بالشقاء . لقد

الصبي والحياة

بقلم عنتر عبدالسلام مخيمر

كان قديما يذهب مع ابويه واخوته الى السينما مساء كل يوم خميس . وكان يجلس في الصالة وليس في «الترسو» كما يحدث الان . وكان يشرب زجاجة كوكا كولا ، او يشتري اي شيء اخر يعجبه . آه لو لم يمت والده .

وانصرف الصبي عن السينما واجما . وقادته قدماه الى مقهى المعلم حمودة . وتردد قبل ان يدفع قدميه الى الداخل فالمعلم يطرده بقسوة اذا كان ثمة شيء يغضبه ، وما اكثر المرات التي يجده فيها غاضبا .



وحملق في وجه المعلم في تساؤل . ملامح وجهه لا تدل اليوم على شيء .

وفكر الصبي لحظة .. ثم استجمع شجاعته ودلف الى داخل المقهى . ولم تمض لحظات حتى طرق سمعه صوت المعلم حموده :

ـ ولد يا عوض .

وانخلع قلب الصبي .. ورمق المعلم في قلق ، ثم همس في خوف ..

ـ نعم يا معلم .

ـ تعال .

وخف الصبي اليه .

ـ ماذا قلت لك بالامس ؟

همس الصبي في رجاء .

ـ وماذا اعمل يا معلم ؟!

فزمجر المعلم في قسوة :

ـ ماذا تعمل ؟ ...

ودفع يده في صدر الصبي بقسوة وهو يغمغم قائلا :

ـ هيا .. ارني عرض كتفيك .

ولم ينطق الصبي ، واستدار ليخرج من المقهى وقد تألقت في مقلتيه الدموع . وفجأة انفجر احد الجالسين صائحا :

ـ ما هذا يا معلم .. يا اخي حرام عليك ..

ونظر الصبي الى الرجل في امتنان .. ثم ارسل ـ بدون وعي ـ نظرة خاطفة الى قدميه . وسكت المعلم .. بينما اشار الرجل الى الصبي وناداه قائلا :

ـ تعال يا بني ..

واختلس الصبي الى المعلم حمودة نظرة سريعة .

انه يتجاهله .. يبدو انه احس بالندم كعادته في كل مرة .

فأسرع الى صاحب النداء وقد اطمأن قلبه .

ـ نعم يا بك .

فمد الرجل قدميه ، ثم قال :

ـ اقعد ..

وانفرجت اسارير وجه الصبي وجلس مسرورا .

سأله الرجل :

ـ ماذا يعمل والدك ؟

الارض والانسان

الارض لا تندي طيوب مروجها — ما دام يدمي جرحها الانسان
تمضي العصور وكل جرح راعف — منها فتزحف تحتنا الديدان
ويظل ينمو الشوك في جنباتها — ليلا ويذوي الورد والريحان
الحقد يمطر بالشرور على الثرى — ابدا فتعوي الريح والنيران
وتزمجر الآفاق تستجدي الهدى — منا فيلعن صوتها الشيطان !

الارض تخشى من تعنت اهوج — عات تثير طموحه الاضغان !
تذوي الجبال على اصابع كفه — وتخر من صرخاته الاكوان !
عظمت خطايا الخلق فاحتدم اللظى — بأتونها فأتى لها الطوفان !

البحرين — احمد محمد الخليفة

اجاب الصبي بصوت تنضح نبراته مرارة وحسرة :

ــ ابي مات .. كان مريضا ثم مـات .

فمط الرجل شفتيه ، ثم استغرقه الصمت .. بينما اخذ الصبي يعمل في نشاط وسرور . وبعد ان فرغ من عمله تطلع الرجل الى قدميه راضيا .. ثم اخرج من جيبه قطعة نقود فضية . ما ان ابصرها الصبي حتى غمغم قائـلا :

ــ ليس معي « فكة »

ــ كم قرشا معك ؟

فتمتم الصبي في خجل :

ــ ثلاثة قروش فقط ..

ــ اهذا كل ما معك ؟

همس الصبي في حسرة :

ــ اجـل ..

وانقبض قلب الرجل ، وغمرته الشفقة فقال في رقة وعطف :

ــ اذن الخمسة قروش لك .

غمغم الصبي في ذهول وحيرة :

ــ لكـن يا بـك ..

فقاطعه الرجل قائلا :

ــ قلت .. خذها لك .

وانتفض قلب الصبي ، وطفرت من مقلتيه الدموع ، ثم انصرف بعد ان تعثرت على شفتيه بعض كلمات الشكـر . وتألق وجهه بالفرح . خمسة قروش دفعة واحدة ؟ .. كم انت كريم يا رب .. سادخل السينما .. سأشاهد فريد شوقي .. يبدو ان قلوب الناس ليست كما اظن .. كم الساعة الان ؟

وسأل احد المارة فأخبره انها الواحدة والنصف .. لقد حان موعد العودة الى البيـت .

وحث خطاه الى بيته . وفي مدخل مسكنه ابصر أخويه الصغيرين عبد الكريم وحسن فداعبهما وقد تألق ثغره بابتسامة وضاءة . وبعـد ان تواترت دقائق سأل امه :

ــ هيه ماذا سناكل اليوم ؟

فأجابت الام :

ــ بصـارة .

وسكت الصبي راضيا .. واخرج من جيبه قطعة النقود الفضيـة .. واعطاها لها فأخذتها بعد ان ربتت على ظهره في حنان .. ثم اخـذت تعد له ولاخوته طعام الغذاء .

وقبل ان يلتف هو واخوته حول «الطبلية» خطر له خاطر مقبض . لقد احتفظ لنفسه بثلاثة قروش وانفق قرشا اخر بدون ان يخبر والدته .. واحس بشيء يعتصر قلبه . ان اسرته احق منه بهذه القروش .. وفكر قليلا .. ثم اخرج القروش من جيبه ومد يده بها الى امه وهو يقول :

ــ خذي .. لقـد نسيتها فـي جيبـي ..

واطرق براسه لحظة ، ثم همس ثانيــة :

ــ و .. انفقت قرشا اخـر .. اكلت به «كشري» ..

قالت الام في حنان :

ــ احتفظ بها .. تريد ان تذهب الى السينما .. اليس كذلك ؟

قال الصبي في خجل :

ــ لا .

فأمرته الام قائلة بصوت تفيض نبراتـه بالحنان ..

ــ قلت لك احتفظ بها .

ثم اخرجت من جيبها قرشا اخر اعطته له وهي تقول :

ــ وخذ هذا ايضا لتشتري بـه شيئـا ..

وقبض الصبي على يد امه ، واخذ يقبلهـا .. ودون ان يشعر انسابت من مقلتيه الدموع .

ج٠ع٠م — عنتر عبدالسلام مخيم



عبدالعزيـز جـادو

انت سـيد نفسـك

بقلم عبدالعزيز جادو

* * *

اذا اردنا ان نحقق نجاحا اكيدا من رحلتنا العقلية هـذه التي نقوم بها ، فمن الضروري ان نفهم بوضوح أنفسنا . وان نكون على بينة مما يكتنف حياتنا ، وان نحيط علما وادراكا بالتعبير الطبيعي عـن الحياة ، وبما تكون عليه الحياة السـويـة .

لقد قسم معظم علماء النفس العقل الى طوريـن او مظهرين هما : صورتا العقل الواعي ، والعقـل الباطن او اللاشعوري .. وهاتان الصورتان تعملان معا جنبا الـى جنب ، ويدا في يد ، ولكنهما مـع ذلك مختلفتان تماما في اسلوبهمـا .

فالعقل الواعي هو ذلك المظهر من العقل الذي يمكنك ان تفكر به تفكيرا واعيا ، وتوجه به افعالك بوعي وشعور. ويمكن تعريفه بأنه الحالة العقلية للانسان وقت اليقظة.. وفي هذا المظهر من العقل نجد القوة الاستدلالية . وانـي ارى ان هذا المظهر من العقل لا يتطلب بيانا مسهبا ، لان اكثر الناس على علم تام بعمل عقولهم الواعية .

اما العقل اللاشعوري فهو أشبه بما نراه عندما نقف على ضفة بحيرة وننظر الى سطحها . فنحن لا نـرى الا جانبا صغيرا لا يعتد به . اما الذي ليس بوسعنا أن نراه مطلقـا فهـو ٩٩ بالمئة .

وبنفس هذه الحالة يوجد في كل فرد منا نوع مـن العقلية او القوة العاقلة المغمورة التي تتكون من طبقة فوق طبقة مما لا نهاية له ، فهي جزء من جانب من العقل العالمي الذي يفيء على العالم اللامتناهي .

والعقل اللاشعوري مخزن عظيم للذاكرة ، فهو المكان الذي تثوى فيه العادة . وهو بمثابة مشرف ومهيمن على جميع وظائف وجودنا الداخلية ، ولكنه لا يملك اية قـوة تعليلية او استدلالية . ومن هنا قد يكون ارتباطنا ببعض العادات المستهجنة ، اللامعقولة .. وحياة الحلم تعبير لهذه الذات اللاشعورية . وكلنا نعلم مما نراه احيانا فـي احلامنا أنها مخالفة للعقل بل من المستحيلات .

الم تعجب في بعض الاحيان مـن وقوعك فريسـة للتفكير في الخوف والضعف مع علمك بضررهما ، شاعرا بأنك مربوط بهما من يديك وقدميك ؟ والاجابة هـي ان العادات عبارة عن تعبيرات لا شعورية . واللاشعورية او الوعي الباطن ليس له قوة استدلالية .

وهذه العقلية المنغمرة ، اللاشعورية ، اللامعقولة ، كانت معروفة منذ سنين عدة ولكن بغير وضوح . يحوطهما كثير من الشك ، ويحوط الاعتراف بها عتمـة وضبـاب كثيف . ولقد غدونا الان ــ مع مرور الزمـن ــ شيئـا فشيئا على دراية واسعة بهذه الاغوار السحيقة اللامنظورة من العقل . ونحن حين ندرس الحقائق المذهلة المتعلقة بها نقف في بعض الاحيان ، وفي اغلب الامر ، في خشية ورهبـة ومهابـة .

وفي طوايا هذه الذات اللاشعورية ، وفي غرفاتها تحفظ بترتيب دقيق سجلات منظمة لكل شيء مما نكون قد سمعناه او قرأناه او رايناه او شعرنا به او خبرناه . انه اشبه بسرداب كبير اميـن على حفظ الودائـع فـي مداخله الكثيرة واقسامه المختلفة ، واوعيته العديدة .

الميـول الموروثـة

والمصدر الاول لهذه المادة في العقل اللاشعوري هو: الوراثة .. فلقد أتينا الى الحياة بانطباعـات وتأثيـرات وذاكرات لاشعورية ، اخذناهـا عـن اسلافنا واجدادنا . ولكون اننا ذاتنا نتاج لتلك الحياة السالفة ، فقـد كنـا ــ من قبل ــ بلا شخصية وبخلق لم يكتمل رقيه ذاتيا .. وكنا مطبوعين بطابع ما قد ذهب من قبل فـي سلسلـة نسبنا ، من قريب وبعيد . ولكننا بالتدريج لامسنا الحياة وسايرناها ، وتقابلنا مع الدنيا واتصلنا بهـا ، بطريقـة مرئية وغير مرئية ، باحساس وبغير احساس ، واخذنـا نتعامل معها شعوريا ولاشعوريا .

اذن فهو الأنا الفردي الذي بدأ في الظهور ليكشف عن نفسه ، ويأخذ في تحسين هذه الميول الموروثة والعمل على ترقيتهـا .

واحب ان يفهم قارئي ان هذه التأثيرات ان هي الا ميول فحسب . ولسنا نحن الذين نوجه اقدارنا ،ونكيف قسمتنا ونصيبنا ، وليس بأيدينا ان نسوق مصيرنا او ندفعه عنا . فالميول قادرة على التشكل والتنقل حتـى لا

يتبقى منها الا اثر طفيف .

وقليل من الناس هم الذين ينمون فقط الشخصية التي تميل الى الوضوح بعض الشيء .. ومميزاتهم الوحيدة او خاصياتهم الفريدة هي السببية ، والبواعث المنقولة اليهم عن اخرين بعد قليل من التحوير ، ثم استخلاصها بلا فائدة وبدون غرض خاص . انهم لا يوطنون العزم على البحث والتقصي المنظم عن بيئة يرغبون فيها . ولا يعطون اي توجيه ذكي للقوى الكامنة فيهم - انها يمكن ان تنمو ولكنها في نفس الوقت تظل كما هي نفس الكائنات الخاضعة للظروف ، والحوادث ، والبيئة.

اننا نجد الفرق شاسعا والتفاوت كبيرا بين هذا الفرد وفرد آخر اخضع قواه الواعية واللاشعورية لقيادة ارادته ومشيئته وحرية اختياره ، وعود قواه وقدراته على حب النظام والطاعة للجهد الكدود ، المثابر ، ذو الحزم والعزم الشديد . احدهما يحرك الدنيا ويهزها ، والاخر تحركه الدنيا وتزعزع كيانه ، احدهما فاتح منتصر مظفر ، والاخر عبد من رقيق الارض ، احدهما يركب السيارات الفاخرة ، بينما الاخر يسير على قدميه ، احدهما يصل الى مطامحه ويبلغ مراده ، والاخر يتحسر على قسمته ويندب حظه في الحياة ، أحدهما يدخل في رحاب النجاح والتفوق من أوسع الابواب، أما الاخر فيقف على باب الامل رجاء قبول الاذن بالدخول .

وجهان من العقل مختلفان

والعادة اللاشعورية ذاتها سهلة الانقياد للايحاءات التي تأتيها من العقل الواعي . والحقيقة الكبيرة التي تؤكد انها لا تملك اية قوة استدلالية ، تبين أيضا انها خادم لعقلك الواعي الاستدلالي .

والعادات تتكون بالتكرار والاعادة ، وبالتفكير الملح في فكرة معينة او عمل بعينه .. وعقلك اللاشعوري انما هو بمثابة خادم مطيع لك . سيطيع اوامرك بعد ان تكون قد اسست اتجاها آمرا ، باتا .. حينئذ يكون قد اقتنع بانك السيد المسيطر على نفسه ، القادر على تأدية الامانة على خير ما يكون الاداء .. والاتجاه الصحيح هو الذي يؤدي الى الثقة ، والايجابية .

دعني اكرر هنا مرة أخرى - يا قارئي الكريم - ان كل شيء سبق ان سمعته ، او رأيته ، او قرأته ، او شعرت به ، أو خبرته ، انما هو مخزون هناك بعيدا ، بعيدا .. ومعنى هذا أن لديك رصيدا كبيرا لا يستهان به من المعلومات والتجارب يمكنك ان تسحب منه ما تشاء وقتما تشاء . وبوسع هذا العقل اللاشعوري ان يجمع حقائق لا عد لها ولا حصر تتعلق بالمشكلة التي تعانيها .. وأولئك الذين على صلة وثيقة بهذا الطور من العقل يملكون ما نسميه «الرؤية» او «الالهام» .

ولأضرب مثلا رجلين اشتريا قطعة من عقار في مكانين مختلفين . وبعد مدة من الزمن نجد ان احدهما باع قطعته بربح كبير ، بينما الاخر لم يتيسر له بيعها حتى ولو بالخسارة . فكيف وقع الاختلاف ، وعلى اي وجه؟ ..

الاول عنده الرؤية ، وامكنه ان يرى مجريات الحوادث واتجاهاتها . وان يتصور ما قد يؤول اليه الجوار في سنوات مقبلة .. أما الاخر فقد اشترى بكل بساطة لانه وجد ان العقار رخيص ، ولانه وقع تحت تأثير بائع ماهر متمرس اعطاه صورة مغرية للامكانيات المستقبلة .

لقد استعمل الاول تخيله وسحب من رصيد قوى عقله اللاشعوري ، أما الاخر فقد استعمل عقله الواعي ، وانقاد الى نتيجته عن طريق التفكير الواعي فحسب .

الم تحاول ذات مرة ان تتذكر اسما من الاسماء ، وتحاول ما شاءت لك المحاولة ، جاهدا دون جدوى . وما يكاد يخطر على ذاكرتك حتى «يزوغ» منك كما لو كان برقا واختفى ؟ ثم الم يحدث لك بعد ذلك ان تفكر في شيء آخر بعيدا كل البعد عن ذاك الاسم ، فيبرز بغتة وبندفع فجأة في عقلك الواعي بطريقة أشبه بطلقة سريعة من بندقية ؟ ان هذا الا مثال بسيط عن كيفية استخراج العقل اللاشعوري للاشياء ووضعها أمامك . فأنت في بادىء الامر شرعت في القيام بفعل لاشعوري عندما حاولت باجتهاد في التفكير في الاسم ، وأثرت على العقل اللاشعوري بما فيه الكفاية ، حتى تم لك ما أردت .

ويمكنك ان تستعمل عقلك اللاشعوري كحارس أيضا. فقد يحدث في كثير من الاحيان ان يتنبه المرء لاشعوريا الى خطأ ارتكبه في أثناء النهار . وقد يحدث للمرء حين يكون في فراشه يطالع في كتاب فيخطر له فجأة انه نسي ان يضع في مظروف معين أحد المستندات .

فاذا انفصل هذا العقل اللاشعوري بغتة عن الشعور او العقل الواعي تكون النتيجة الحتمية لذلك ما يسمى بـ «الامنيزيا» أو فقدان الذاكرة ، أو «النساوة» . وهي حالة يفقد فيها الشخص ذاكرته تماما حتى لينسى شخصيته فيهيم في الارض لا يدري من امره ولا من امور الذين من حوله شيئا .

والرجل المتوسط يتأثر الى حد بعيد بعقله اللاشعوري أكثر من تأثره بعقله الواعي . ومعظم الاشياء التي نقوم بادائها في أثناء تجاربنا اليومية انما تتم عن طريق العادة . والعادة دائما ما تكون فكرة لا شعورية او فعلا لاشعوريا .

والعادة كذلك من البواعث التي تجعل الناس يقترفون الآثام ، ويرتكبون الجرائم ، وينزعون الى الشر ، ويقومون بأعمال ما كانت لتخطر لهم ابدا على بال . وليس بخاف ان التأثيرات موجودة ، وقد لا يكون لها دخل في هذه الامور ، ولكن الى هذه اللحظة نرى ان القوى اللاشعورية هنا لها سطوتها ولها نفوذها .

والعقل اللاشعوري هذا يؤدي دورا له اهميته في

صحتك ، وفي سعادتك ، وفي نجاحك . ففي امكان هذا العقل اللاشعوري ان يشرع في اجراء تغييرات هامة وعجيبة فيك اذا جاءته منك قوة دافعة او محركة تبعثه للعمل .

ولكن ما صلة هذه العقلية اللاشعورية بالصحة والسعادة ؟

وراثة الصفات

ان معظم الباحثين المبرزين في هذا الجانب اللاشعوري من الحياة ، من امثال برنهايم ، وفوريل ، وديبوا ، وبراموبل ، قدموا لنا الدليل المقنع لقوة العقل اللاشعورية في احداث تغييرات هامة في الوظائف الطبيعية . وان عمله من هذه الوجهة ربما يكون اكثر عمقا واكثر عالمية مما للعمليات العقلية الواعية .

ثم ان الفكرة ، والصورة الذهنية ، والاتجاه ،حينما تكون جميعها باطنية ولاشعورية فانها تكون قادرة على التاثير في الجهاز العصبي ، وفي التغييرات الكيميائية التي تحدث في التركيب الطبيعي باكمله .

والحالة الصحية التي يمتلكها كل شخص يحتمل ان تكون وثيقة الصلة ـ اكثر مما هو مفهوم ـ بهذه العملية اللاشعورية المميزة وهي في الحقيقة ، ليست محتملة فحسب ، ولكنني تحققت مرارا من ان مظهر الانسان وملامحه ، واسارير وجهه ، وثيقة الصلة بهذه العقلية اللاشعورية . فالانسان حين يكون سائرا في طريق مزدحم بالناس فانه يرى انواعا مختلفة وشكولا متباينة من التعبير . فهذا وجه يبدو عليه الخوف ، وذاك ينم على مكر ودهاء وآخر يظهر عليه الكراهية والبغض ، وآخر تعلو وجهه علائم الحلاوة والطلاوة والعذوبة والرقة والظرف . وهناك وجه تنقصه بعض تغييرات طفيفة ليكون أقرب شبها الى الثعلب وآخر اقرب شبها الى الذئب ، وثالث فيه بعض ملامح القرد .

انها وراثة الصفات ولا شك .. وانها انتقال صفات الوالدين الى أولادهم هي التي تدخلت في هذا . ولكن مع كل ذلك فالتأثير كل التأثير ، والقدرة كل القدرة ، انما ترجع جميعا الى نشاط العقل اللاشعوري .

واذكر ان وراثة الصفات ايضا ان هي الا ميل لاشعوري ، او صورة ذهنية لاشعورية . فاذا نشأ الفرد منذ طفولته بشوشا ، مرحا ، مليئا بالامل والثقة في المستقبل ، اتظن انه حين ينمو ويكتمل جسمه تتغير ملامحه وتقاطيع وجهه ، فتعبر عن الخوف او الغضب أو الارتياب او الشك او البغض ؟ ان هذا مناقض للطبيعة .

هل يمكن تهذيب العقل الباطن ؟

فمن الواضح اذن ان احدى مشكلاتنا الكبرى هي مطلب هذه المنطقة الداخلية ، المخبوءة .. فهل يمكن ان يهذب العقل الباطن ويعلم من جديد ؟ هل يمكن ان تعاد صياغته او يعاد تنظيمه مرة اخرى ؟..

انه لما كان موجودا الان في كل فرد فهناك عاملان مختلفان يتحكمان فيه بدرجة كبيرة : الاول ، وهو وجود اثر لا يزال باقيا من حيوانية انحدرت اليه من العصور الغابرة حين كان الانسان ـ وهو اصغر بكثير من أي حيوان ـ يكافح نحو الانسانية . ولقد سارت كمية كبيرة من غريزة الحيوان في طريقها من تلك الازمان السحيقة الى اولئك الذين يعيشون الان بين ظهرانينا . فليس لنا ان نستهين بتلك الطبيعة الانسانية التي نطلق عليها « الناسوت » ونعتبر انها مجرد قشرة خفيفة تغطي أو تكسو حيوانا بداخلنا .

وهذا يفسر جزئيا بزوغ كثير من الدوافع المعتمة التي تفاجيء الناس ، والتي تميل الى الانزال من قدرهم والهبوط بهم الى الدرك ، والتي تقودهم في بعض الاحيان الى الاجرام .

رواسب من حالات الماضي

والعامل الاخر من عوامل العقل اللاشعوري هو راسب او بقية باقية من حالات الماضي توالدت من عمليات الذهن الواعي . فلقد كان لدينا في كل يوم خلال حياتنا الماضية ساعات عديدة نقضيها في التفكير الواعي . والافكار من كل نوع ما دامت مفهومة ومعقولة فلا مانع من أن يسمح لها بالتردد . ولما كانت الصور الذهنية بأنواعها العديدة تنطوي على اغراء شديد ، فكان لا بد للعقل من أن يمسك بها . فاذا ما ابعدت كان من المفروض ان تزول وتختفي تماما وتنتهي الى غير رجعة . ولكن لا .. ليس الامر كذلك .. وليس هناك في الحقيقة اية صورة ذهنية او اية صيغة فكرية قد امحت ابدا ، فهي لا تزال باقية . ولا بد ان تترك اثرا على النسيج الرقيق من الحياة الكامنة ، الباطنة . تماما كالصورة على لوحة المصور .

ولكن ليس ثمة موجب للقلق بشأن هذه العصور الذهنية الغير مرغوب فيها . فمع ان هذه الانطباعات تظل باقية خلال بناء حياة فكر جديدة ، تعمل على تكديس خواطر غاية في الابداع ، واللطف ، والصفاء على سطح تلك الخواطر الغير مرغوب فيها ، فتتجمع الخواطر القديمة في الطبقات السفلية حيث ترسب بالتدريج شيئا فشيئا الى ان تصبح بعد مدة من الزمن في طي النسيان .

اذن لا تذعن ولا تستكن للشعور بأن الاقدار هي التي تقودك ، او ان الظروف هي التي تحكمك بسبب الافكار او التجارب الماضية .

مأساة لم تتم

أذكر ان سيدة جاءتني ذات يوم منذ بضع سنوات وقصت علي قصتها : « نصحني احد اقاربي بزيارتك

عندما اولد من جديد

سألعب ، العب حتى الصباح
والبس اقنعة من غيوم ، وقوس قزح
لاحيا حياتي الجديده
ساولد في سن عشرين عاما
بـدون طفولـه
بدون متاعب عهد الدفاتر والمدرسة
وحشـو الرؤوس
بجدول ضرب ، بحفظ غريب النصوص
وابقى دواما بعمر الشباب
وجدة عمري تزيد التصاقا
بجيـب ثيابـي
ساولد مستقبلا من جديد
ساولد في سن عشرين عاما
وفـور الولاده
سأسأل : اين قميصي وربطة صدري؟؟
لاذهب حالا ، الى حفلة ساهره
ولن ادع الوقت يهرب من قبضتي
ساحيا ، طولا ، وعرضا

لاني تعلمت كيف أعيش
سأرفض حمل النقود
لاني استعضت عن المال بالزهر عند
التعامـل
سأمنح خبازنا زهرة ، ليعطي الرغيف
وجارتنا زهرة لتصنع بسمة
ووالدتي زهرة لتطبع اعيننا بالمحبه
لاني أحب بلادي بكل مداخنها الشارده
بكل بيوت الصفيح الحزينه
بكل الذين يبيعون بالعربات الفواكه
بكل الذين جنوا ، ثم تابوا
تمنيت لو كنت امشي وايديهم في
يـدي
الى شاطىء البحر نفسل بالموج أقدامنا
ونجلس في ظل نخله
لنأكل ثمرا ، وبعض اللبن
وعندئذ يطفح الخير فوق الخوابي
ونشرب اعيننا الاغنيات

علي صدقي عبد القادر — طرابلس الغرب

لاستشيرك في امري ، مؤكدا لي اني سأجد لديك حلا موفقا لمشكلتي .. ان الذي اعانيه قد آل الي بالوراثة . فلقد نشأت منذ طفولتي وبي طبع ثائر جموح ، سريعة الغضب ، اثور لأتفه الاسباب . وكان ابي وجدى يعانيان نفس هذه الحالة .. وانا الان ام لطفلين صغيرين ، ولي زوج مخلص يحبني ويحنو علي . وانه لصبور طويل الاناة . ولكني أرى الان ان بيتي يوشك ان تتقوض اركانه بسبب هذا الطبع ، وان زوجي لا بد سينفد صبره يوما وينهي الخلافات التي بيننا بالانفصال عني . ولقد انذرني فعلا بأني اذا عدت الى هذا الشجار مرة اخرى فانه سيحزم امتعته ويترك لي المنزل الى غير عودة . واني اعتقد ان الطبع الموروث متأصل الجذور ليس من السهل الاقلاع عنه . فكيف أتمكن من تغيير طبيعتي وهذه حالتي ؟ انني لفي حيرة شديدة . وفي خوف من ان اهدم بيتـي ! »

فقلت لها انها لا يمكنها بأي حال ان تغير قوى طبيعتها . ولكن في استطاعتها ان تحصل على قيادة حكيمة وسلطة كبيرة تتحكم بهما في هذه القوة الشديدة التي توشك ان تحطم حياتها . وفي امكانها ان تتعلم كيف توجه هذه القيادة وتديرها بطرق واساليب ليس فيها ضـرر البتـة لها او للاخرين .

فقالت لي بلهجة فيها شك وعدم اطمئنان : « سأحاول جهدي ان اعمل بنصيحتك » .

ولقد علمت من هذه السيدة بعد ذلك انها تغلبت فعلا على عادة الغضب بدون سبب . وامكنها ان تصلح ذات البين بينها وبين زوجها .. وانها لسعيدة كل السعادة، هانئة في معيشتها راضية كل الرضا .

فنحن لا يمكننا ان نقصي عنا العواطف الباطنة القوية التي تعتبر طبيعية بالنسبة لنا ، او التي تطبعنا بها .. ولكننا يمكننا ان نسيطر عليها ونحكمها ونوجهها ونستعملها لنفعنا ، حتى تكون هذه القوى تحت امرتنا ، تعمل لنا ، ومن أجلنا ، بدلا من ان تعمل ضدنا .

عبدالعزيز جادو — الاسكندرية



يوسف عبدالمسيح ثروة

الاعماق الدفينة

بقلم يوسف عبدالمسيح ثروة

* * *

يمتاز انطون تشيخوف (١٨٦٠ – ١٩٠٤) بصفته كاتبا مسرحيا بسمات قلما تيسرت لغيره ، فقد برز باسلوب هادىء لطيف بسيط ، وهيمنة على القلم ، وسطوة رائعة على المشاهد ، وقابلية خلاقة على ابداع الشخوص ، ونفس طويل في الاداء والحوار ، ورهافة حس اخاذة ، وصبر على المعاناة الشخصية ، ودراية واسعة في الفن المسرحي ، واحاطة شاملة بالموضوعات التي يطرقها اولا باول .

ونحن – حين نشيح صفحا عن دراسة سيرته العطرة – لا نفعل ذلك الا لان هذه السيرة قتلت بحثا واستقراءا واستنتاجا ، والا لاننا لا نرى فائدة في تكرار ما هو معروف مطروق .

فما هي سمات مسرحه ؟ وما هي الموضوعات التي تناولها على هذا المسرح ؟ وما هي الصفات البارزة التي تختص بها شخوصه ؟ وما هي العلاقات الانسانية التي يعالجها وكيف يعالجها ؟ كل هذه اسئلة تتطلب الاجوبة الملحة العاجلة لكي تكون لنا فكرة عن تشيخوف الفنان الانسان وعن تشيخوف الكاتب المسرحي بصورة أخص .

مسرح تشيخوف مسرح واقعي ، يستند الى النص اكثر من استناده الى خشبة المسرح ، فهو من هذه الجهة مجدد لا يسعى الى المسرح وانما الاخير هو الذي يسعى اليه ، ومن هنا فهو حرب عوان على التقاليد المسرحية في مدارسها المختلفة من طبيعية وتعبيرية ورمزية وما الى ذلك.انه يهتم بالنص اهتماما جديا كبيرا ، لان النص الادبي ينبغي ان تكون له السيطرة الكاملة على المسرح ولان المسرح بمخرجيه وممثليه وبكيانه المعنوي والمادي تجسيد حي للنص .

فماذا يصور النص : انه (يصور الحياة كما يعيشها الناس الاعتياديون) فـ (الحياة ينبغي ان تكون كما هي بالضبط والناس كما هم ...وليكن كل شيء على المسرح معقدا وبسيطا في الوقت نفسه كما هي الحال في الحياة) ، وبهذه الكلمات الواضحة يضع تشيخوف حجر الزاوية في كيانه المسرحي بدقة وضبط وامانة . انه يضع الامور في نصابها ويراها رؤية العين لتكون منطلقا لرؤيا البصيرة النفاذة .

وهو اذ يعنى بمظاهر السلوك الانساني لا يرى بأسا في هذه العناية لانها ستسوقه الى ما وراء المظاهر ، الى واقع العلاقات الانسانية ، في اسفافها وانحطاطها ، في سموها وشموخها ، في جزرها وحدها ، في تشابكها وتنافرها ، في هذا السيل الجارف من التناقضات والمصالحات، وفي كل ما هنالك من شؤون الحياة وبواعثها ومسيرتها وصيرورتها . ورائد كل تلك العناية ومحورها ودفتها هو الصدق العاري ليس الا !

فالصدق وما يتبعه من صراحة واخلاص وامانة بصمات واضحة تجدها نابضة حية في كل مشهد من مشاهد مسرحياته ولا سيما في «ايفانوف» و «بستان الكرز» و «النورس» و «الخالفانيا» و «الشقيقات الثلاث».ومن معين هذا الصدق تنبعث نافورة النقد الاجتماعي التي تتناوش برذاذها النظام السياسي يومئذ . ومع ان تشيخوف لم يشترك في أي من المعامع السياسية العديدة ، التي اشترك فيها الكثيرون من اضرابه من الكتاب ، فهو – في مسرحه وكتاباته الاخرى – كان يدين النظام السائد ادانة ضمنية . وهذا امر ليس البت فيه سهلا ، لما عرف به تشيخوف من ابتعاد عن القوالب الفكرية الجامدة ، ومن لطافة واستحياء ، ونكران ذات ، وحس فكاهي حي يتراوح بين السخرية والاشفاق .

ومن سمات مسرحه ذلك الجو الداكن المظلم الذي يتضافر عليه السأم والقرف والوحشة والاشمئزاز والرتابة المحزنة الطويلة ، والخيبة والضياع ، وكل هذه الامور تتعاون وتتعاضد لتلف بدوامتها الجارفة مسرحية من احسن مسرحياته ، هي «الشقيقات الثلاث» وهي – في فعلتها هذه – لا تقتصر على هذه المسرحية حسب ، بل تلف المسرحيات الاخرى ايضا ، ولكن بطريقة ألين ، وادعى الى التساهل والتسامح .

واذن فالظلال الداكنة في المسرح التشيخوفي ظاهرة بارزة لا يمكن نكرانها ولا التنصل منها.انها تتدافع وياخذ بعضها بخناق بعض في كل مسرحية من «شيطان الغابة» الى «بستان الكرز» آخر مسرحياته .

وهذه الظلال لا تتفق – في شيء مع نفسية تشيخوف – بل هي تتعارض معها تعارض النقيض لنقيضه وكانها ليست من سلالة تشيخوف : لقد كان مرحا بشوشا متكئا لطيفا ، في كل ما تقلب فيه من شجون الحياة وشؤونها ، وقد ظلت هذه الخصال غير منفصلة عن حياته حتى على فراش الموت.وهذا التناقض الغريب بين نفسية تشيخوف وجو مسرحه أثار تساؤلات كثيرة لدى النقاد العديدين الذين تناولوا حياة تشيخوف وادبه بالتحليل والتمحيص والدراسة ، وكانت حصيلة اتعابهم تساؤلا كبيرا لم يجدوا له جوابا شافيا وافيا . ولو تصورنا انه كان رساما بارعا للنفس البشرية وللمجتمع الروسي الذي تاطرت به تلك النفس على عهده ، ولما كانت تلك النفس تعيش عذابا متواصلا مفجعا ، في أحوال اجتماعية متمزقة ، وشروط حياة مرعبة تتطاير شررا وحقدا اسود ، تحيط بها تفاهة كبيرة هي هذه التقاليد التي تأبى ان تموت وقد حملها الموت قسرا الى مملكته من زمن بعيد !

لو تصورناه كذلك ، وقد كان كذلك ، لجاءنا الجواب هينا يسيرا يقول : هذا فنان اصيل ، وهذه تربة خصبة لفنه الممتع الرائق وموهبته المبدعة التي تستطيع « ان تسيطر على الحقيقة الظاهرة والباطنة في الوقت نفسه (١). » و « بفن الاستاذ الحق يعرف كيف يمزق زيف العرض المسرحي – بخوافيه وظواهره – بتقديمه لنا الحقيقة الفنية الجميلة الاصيلة .. وهذه الحقيقة تحركنا بفجائيتها ، بالاواصر السرية التي تربطنا بماضينا المنسي ، وبتنبؤها غير القابل للتفسير عن المستقبل ، وبمنطقها الخاص المنبثق من التجربة الحية ، الذي يذهل الحس السليم ، والذي يبدو كانه يسخر بالكائنات البشرية او يلاعبها ملاعبة خبيثة فيصيبها الذهول التام احيانا ، ويجعلها تضحك احيانا أخرى (٢) . »

اما الموضوعات الرئيسية التي يتطرق اليها تشيخوف فهي انهيار المجتمع الاقطاعي كما هي الحال في «بستان الكرز» بصورة خاصة

ورتابة الحياة الريفية المقيتة في «الاخوات الثلاثة» بما فيها من خيبة أمل وضياع فرص ، وتشيث سخيف بحياة سخيفة ، وتفسخ للعنجهية العسكرية ، وضباب نفسي مقيت لا ينتهي الا بان يحل محله سراب اجوف ادعى من الضباب على المقت ، وتقابل مكشوف بين الفن الصادق والفن الزائف ، بين ما يبدو بسيطا وبين اعقد الاوضاع البشرية واشدها تشابكا . ومع انتصار البساطة والاصالة ، فالحب الاليم والغيرة وحتى الانتحار امور تأخذ مجراها الطبيعي في «النورس» وطائر البحر هذا يبادرنا رمزا ، ثم ينتهي بنا الى واقع يهتز حركة وحيوية وتعاطفا وسخرية في الوقت نفسه !

ومن هذا الواقع يبدع تشيخوف العالم الذي يريده ويبدع معه فنا بسيطا عميقا يعالج حياة الناس الاعتياديين ، في جحيم حياتهم ، بآمالهم المتمزقة وعيونهم الزائفة ، ونفوسهم المحطمة وحبهم الضائع ، وجهودهم المهدورة ، ومتاعبهم التي لا تنتهي ، وعملهم الرتيب التافه ، وجهادهم الخائب..وفي كل ما يعتور وجودهم من غثيان واسفاف وانحطاط وبلادة وجفاف وسقم وقماءة . فكيف يستطيع هذا الفنان ، وهو يرسم بريشته الرهيفة هذه الصور المرعبة ، ان يبهرنا بجمال هذه الصور وان يسحرنا ويقودنا ، ونحن في ذهول ، الى المشاهد التي يريد والى المناظر التي يرغب من غير عنت ولا ارهاق ولا حث ؟ انه يفعل ذلك باستطاعته «ان ينظم تتابعا طبيعيا لمجموعات اجتماعية حول موضوعه الرئيسي وموقفه الدرامي.ومن ثم تمضي طريقة تشيكوف وهي تكشف بالتدريج عن موضوعها ومواقفها الدرامية ، وذلك عن طريق الصدفة ، اذا أردت ، او عن طريق هذه الصدفة المدروسة وفق خطة وضعها الكاتب محبوكة كل الحبك على اسس درامية منسجمة حتى لتكاد ان تكون موسيقية» وما ذلك الا لان «تشيكوف يريد ان يقيم علاقة تهكمية قوية الصلة بين الشكل والمحتوى في مسرحه ، أي بين المظهر الخارجي وبين الجوهر العميق المستتر من فنه» (٣) .

وهو ، في عرضه لموضوعات الحياة الشائعة ، لا يرى بأسا في ان يبرز السمات المأساوية والكوميدية بالقوة نفسها ، في العرض والاداء والحوار ، وبأسلوب (طبيعي) ساحر يجعل وهم الحياة على المسرح وهما جذابا يستدرج النظارة استدراجا منطقيا ، لا زركشة فيه ولا تصنع . اما الامر المحير في هذا العرض (الطبيعي) وما له به من امكانيات الجذب التوتري الدائب ، مع بساطة الموضوعات التي تطرقنا الى بعضها ، فقضية اذهلت النقاد منذ عهد تشيخوف والى يومنا هذا! . اذ كيف تكون لهذه الموضوعات ـ في صيغتها المسرحية ـ كل تلك القوة الجاذبة الهائلة ، وما هي الوسيلة السحرية التي يستخدمها تشيخوف في الابقاء على التوتر ، على الرغم من ابتعاده عن القواعد المسرحية المعروفة في زمنه وثورته عليها ؟ انه يستطيع ذلك (بالابتعاد عن المواقف الدرامية المثيرة وبالاعتماد على سرد الحوادث المهمة في حياة شخوصه سردا غير مباشر (٤) . » وهو بهذه الطريقة ذات الوجهين السلبي والايجابي يستطيع ان يكيف بيئة المسرح والنص الدرامي تكييفا اقرب ما يكون التكييف الى الحياة الاعتيادية المألوفة . ومن هنا تبدو (طبيعية) تشيخوف واضحة كما يبدو ابتعاده عن المستلزمات الدرامية التقليدية.

اما سمات شخوصه البارزة فلا تقتضي كثيرا من الجهد للتعرف عليها سمة سمة ، ففي «النورس» يعمل (عنصر الايحاء والاهتمام بالحوادث الاعتيادية التافهة) على تشخيص كوستانتين (الفنان الدعي التافه ازاء نينا الفنانة المستجدة التي تتمكن ان تقفز الى خشبة المسرح بجدارة وبصورة تلفت الانظار والقلوب معا . لا لشيء الا لان اندفاعها الى رحاب الفن كان اندفاعا اصيلا صادرا من نبع الحياة النقي . لا كما كانت الحال مع كوستانتين ـ في تكلفه وتصنعه وتكبره ، ومن ثم اسفافه وانحداره وتحطمه فانتحاره الذي لا يثير فينا شجنا ولا اثرا محزنا لانه خاتمة المطاف للزيف الاجتماعي !

وهذه الصورة الصادقة للشخوص تتخذ مظهرا اوضح في «الخال فانيا » اذ بدلا من الانتحار هناك محاولة ومسدس يشار اليه ثم يختفي هذا المسدس . والخال «فانيا» ـ فوينيتسكي ، واستروف وييلينا ، صور من الحياة ، صادقة بارعة ، واقعية . يكفي في وصفها انها جزء (لا يتجزأ من شريحة الحياة) فهي تمثل الارستقراطية الريفية ، في انهيارها ، في فسادها وتفاهتها وتخاذلها ، وفي تشبثها المقيت بالابهة الفارغة وتعلقها الغريب بالايام الذهبية الماضية ، واصرارها على ان الحياة لا يمكن ان تكون ابدع مما كانت . كل شيء هادي اعتيادي ، الحوار والجدل ، والذكريات والاخذ والرد ، في جو الحب الذي يشب ثم ينحدر خاسئا متمرمرا .الوجوه تتقاسمها رتابة مميتة ، والعيون لا تكاد ترى شيئا غير الملل والسأم واستمرار الحياة في مجراها الطبيعي ، الشخوص تأكل وتشرب وتنام تماما كالناس الاعتياديين ، وعلى حين بغتة تحدث احداث جسام تهزهم لحظة او لحظات ثم يعودون الى رتابتهم المعهودة ، وكأن لم يحدث شيء ، لان الانتحار ، لا يبدو فكرة او تصورا ، حتى يتحول وبسرعة الى خور في الارادة والعزيمة ، ومن ثم الى تهافت رخيص على فتات هذه الحياة الرخيصة !

ففاييف ورانيفسكي وآنيا (٥) فهم احياء اكثر مما يجب ، اذ ان جو الحياة الذي يحيط بهم غني بمعناه ، بروحه بغزارة حيويته ، بصدق تعبيره عن الواقع الحي ، بقدرته الخارقة على لفنا بغلالته الفضفاضة ، بعذوبة انفاسه ، ولطافة عرفه ، ووفرة انسانيته وكثرة مشاهده المتناقضة المتعاقبة بسرعة خارقة تدعو الى الذهول والدهش. وفي هذا الصدد يقول جـ . بريستلي : « انه (يعني تشيكوف) يستطيع بالاستناد الى انسيابية الفعل وتجنب الاحكام في البناء الكياني من ان يسمح لشخوصه ، لا لقلة منهم بل لمعظمهم ليكشفوا عن انفسهم بالعديد من الوسائل والمستويات .. »

ففي كل فصل وخاصة في كل المشاهد الاربعة الجميلة المتناقضة في «بستان الكرز» جو غني خاص (٦) .» وهذا الفنى لا يتمثل فيما يقال او يفعل ، انما يتمثل في الاعماق الدفينة على ما يذهب اليه ستانسلافسكي . وفي تلك الاعماق تنكشف خبايا النفوس ومكنونات الارواح انكشافا طبيعيا بلوريا تمتزج فيه البراءة والبساطة والمشاركة الوجدانية امتزاجا لطيفا اثيرا لدى كل انسان . ومن هذه الالفة تنبعث عظمة تشيخوف وقدرته العجيبة في تكنيكه الدرامي ..

ان شخوص تشيخوف من لحم ودم واعصاب ، وانهم نحن انفسنا ولكن في محيط روسيا القصيرة ، وهذه الواقعية ليست (طبيعية) بالمعنى المصطلح من هذه الكلمة على طريقة اميل زولا ، بل هي طبيعية حية ، تجمع بيننا وبين شخوصه قرابة أقوى بكثير من قرابة الدم البارد ، لانها قرابة الانسانية في حرارتها وألفتها وحنانها وتشوقها ، وفي تعاطفها وانسجامها وشعورها بالمصير المشترك الواحد . ان هذه الوحدة المنسجمة ، بدافع انسجام الحياة ، لا تعنى كبير عناية بالمنطقية الجافة في تسلسل الحوادث والشخوص والافعال ، وانما تعنى بتوسيع آماد الشخصية الانسانية ، وتعميقها ، والغوص الى اسرارها ، في مساربها واغوارها ، لكن ، وهنا موضع العجب ، بأسلوب بسيط بساطة الحياة ، عميق عمقها ، وبريشة يخر الفنانون الحقيقيون سجدا امام روعة ما رسمته وجماله ، في اصالة التعبير ، وحرارة القسمات ، وجلال التأثير .

صحيح ان تشيخوف لا يعنى بالشخوص بصفتها الانفرادية ، وانما يعنى بها باعتبارها افرادا واعضاء في وحدات اجتماعية وهذا ما أشار اليه ج.م كوهن في كتابه «تاريخ الادب الغربي» حيث قال : «ان تشيخوف ، على الضد من ابسن ، لا يهتم بالشخوص الفردية وبمصائرها . ذلك ان مسرحياته خالية من الابطال . وهي تهتم بمجموعات من الناس وبالصلات التي تربط بين هذه المجموعات .. الناس يتكلمون بصوت عال ، ولكنهم لا يوجهون كلامهم لبعضهم بعضا بل هم يخاطبون انفسهم ويعبرون عن الآمال الغامضة والاخفاقات

الشخصية ، ومع تصرفاتهم الهزلية بعض الشيء ، فهم جميعا محبوبون. ان العالم الذي يرسمه عالم شاغر المكان ، مفتقد ، لكنه غير ضائع تماما . »

لكن الاصح من ذلك كله انه يضع بيارق الآمال العراض في وسط الغابة السوداء ، بيارق بيضاء تعلوها مشاعل ارجوانية ، لتلتمع من حين الى حين تلك الغابة باضواء المستقبل ، بعد طول ذلك الليل البهيم! وهذا ما نجده بوضوح في شخصيات فيرشينين في «الشقيقات الثلاث » وتروفيموف وآنيا في « بستان الكرز » وسونيا في « الخال فانيا » . ومع خفة ظل هذه الشخوص ولطفها ورقتها ، فهي تبشر بمستقبل زاه وبذا تمثل ظلالا على عتبة هذا المستقبل .

يقول فيرشينين في معرض تنبوئه بالمستقبل : « وقبل مضي مدة طويلة ... سينظر الناس الى حياتنا الراهنة كما ننظر الى الماضي تماما بسخرية وارتعاب . وقد يبدو عصرنا فظا غريبا مملا بالقياس اليهم . آوه ، ما أعظم الحياة عندئذ ، ما أعظم الحياة (يضحك) معذرة، اني انفلسف بذهني مرة أخرى ... سيعيش الناس بطريقتهم الخاصة، وحتى انتم ستكونون من طراز قديم ، وسيأتي بشر ارقى منكم .. (يضحك) انا في مزاج خاص اليوم . اشعر برغبة عارمة في الحياة .. (٧) »

ويقول مخاطبا توزنباخ : « اعتقد ان كل شيء في العالم هو على وشك التغير تدريجا ـ والواقع ، انه يتغير امام اعيننا بالذات . وفي مدة ثلثمئة او الف سنه ـ طوال المدة لا يهم ، ستكون الحياة مختلفة . ستكون سعيدة . طبعا لن يكون في قدرتنا الاستمتاع بتلك الحياة القابلة ، ومهما يكن من امر ، فان ما نحيا من اجله الان هو خلق تلك (الحياة) . وهذا هو هدف حياتنا (٨) » .

ويقول تروفيموف مكاشفا رجل الاعمال الذي كان يحاول شراء بستان الكرز ، وكانه يصفع نظاما بكامله : « تروفيموف : فكرتي عنك، يا يرمولاي الكسييفيتش هي هذه ببساطة : انت رجل ثري ، وقبل انقضاء وقت طويل ستصبح مليونيرا ؟ وبقدر ما يكون الحيوان الوحشي ضروريا لانه يزدرد كل شيء في طريقه ، محيلا نوعا من المادة الى نوع اخر فكذلك انت (٩) » . ومما له دلالته قوله : « الانسانية في تقدم مستمر ، وهي تعمل جاهدة من اجل تكامل قواها الخاصة . وسيأتي يوم ندرك فيه ما لم ندركه الان وسيكون في حوزتنا ما لم نستطع ادراكه . »

وفي صدد حياة البشر الذين رافقهم تروفيموف يقول ، وكانه صدى رهيب لواقع ابعث على الارهاب والذعر : « الشعب العامل يعيش على قوت مرعب ، وينام ثلاثون او اربعون (من هذا الشعب) في غرفة واحدة ، الاسرة ليست اسرة طبيعية ، والبعوض كثير ،والرائحة الكريهة ، والرطوبة والفحش منتشر في كل مكان .. ليس ثمة غير القذارة والوحشية والعادات الآسيوية (١٠) .. » هذه الحقيقة المرعبة، كانت يمكن ان تدفع بتروفيموف الى هاوية التشاؤم ، لو لم يشعر ، في اعماق تلك الهاوية التي يصفها ، ان الظاهرة الموضوعية ظاهرة حركية ، نبض الحياة لا يتوقف مطلقا ما دام على هذا الكوكب بشر ،

(١ ، ٢) ستانسلافكي ـ حياتي في الفن ـ عن مقدمة اليزافيتافين لمسرحيات تشيخوف . (٣) المسرح الحديث ـ اريك بنتلي ـ ترجمة محمد عزيز رفعت . (٤) مسرحيات تشيخوف ـ مقدمة اليزافيتافين . (٥) من ابطال «بستان الكرز» . (٦) ج.ب بريستلي «الادب والانسان الغربي». (٧ ، ٨) «الشقيقات الثلاث» . (٩ ، ١٠) «بستان الكرز ». (١١) بستان الكرز . (١٢) الخال فانيا . (١٣) القارىء الاعتيادي ـ فرجينيا وولف.(١٤) الكاتب الحديث وعالمه الخاص ـ جـ .س فريزر. (١٥) اندري بروزوروف في «الشقيقات الثلاث» نقلا من مقدمة اليزافيتافين . (١٦) المصدر السابق نفسه .

وما دام هذا البشر متأثرا بصورة تلقائية بالظروف الاجتماعية التي هي الكيان الفوقي للواقع المتغير باستمرار . وفي هذا الجو يبدو هذا التفاؤل غريبا ، بعيدا عن الحياة ، عن منطق الاشياء . الا انه ليس كذلك لمن وهب الرؤيا الحية المتصلة ـ على المدى الزماني والمكاني ـ بالواقع الحي المتغير بكل الحوافز المرئية وغير المرئية ، بالاسباب الظاهرة والباطنة ، وبما يعتور الحياة من تناقضات شتى تعمل جميعا في الوقت نفسه على دفع عجلة التاريخ الى امام على الرغم من الوهاد والشعاب والجبال والعقبات التي تقف هنا وهناك ازاءها ! وهذا ما يؤكده تروفيموف وهو يحاور لوباهين : « ... الانسانية سائرة نحو الحقيقة العليا ، نحو سعادة عظمى يمكن ان تتحقق على الارض ، وانا في الطليعة (١١) . »

انه يقول ذلك وكأنه انسان حالم ، والا فكيف له ان يدلي بهذه العبارات وهو القائل : « حالما ياتي الشتاء اجد نفسي نصف جائع ، مريضا مهموما ، فقيرا كالسائل والمحروم ، وقد تسكعت في كل مكان ساقني اليه القدر . » واذا هو واصحابه لم يروا السعادة ولم يعرفوا ميقات قدومها ، فليس في ذلك باس ، لان غيرهم سيرونها !

اما شجاعة آنيا فتبدو في اروع صورة واقربها الى القلب وادعاها الى التامل ، حيث تقول مهدئة خواطر امها الهائجة ، بعد ان تم بيع «بستان الكرز» في المزاد : «اماه ، ستعودين سريعا اليس كذلك ؟ سادرس واجتاز امتحاني في الثانوية ، ثم ساعمل واساعدك وسنقرأ كل انواع الكتب معا ، اماه .. اليس كذلك ؟ (تقبل يد والدتها) سنقرأ كتبا كثيرة ، وسينفتح قدامنا عالم جديد عجيب .» ولو كان الكاتب غير تشيخوف لكان شانه مع آنيا غير شانه ولرأينا المأساة بمعناها الكلاسي العاطفي الهياجي تطغى على هذا المشهد ، فتنهار آنيا تبعا لانهيار والدتها وتسير المسرحية الى ذروتها العاطفية الرهيبة !

اما صونيا ، الفتاة الحلوة البسيطة ، الطافحة بالاحلام العذاب ، المدنفة بالدكتور استروف ، كل ذلك الدنف الذي جعل من حياتها عذابا متواصلا يتمثل في الترقب والتوقع والتوتر،فليس يخيب ظنها حسب ، حين يفلت الطائر من يديها ، بل يخيب ظنها في الحياة برمتها ، ومع ذلك كله ، فهي تخاطب خالها فانيا قائلة : « ماذا نعمل ، علينا ان نعيش ... سنعيش في سلسلة من الايام والليالي الطويلة المملة . وسنعاني صروف الزمان التي يفرضها علينا القدر بصبر واحتمال . سنعمل من اجل الاخرين . ولن نحظى بالراحة ، لا الان ولا في الشيخوخة . وعندما تأزف ساعتنا ، سنموت خاضعين مستسلمين ، وهناك وراء القبر ، سنتحدث عما قاسينا وكابدنا ، عن دموعنا عن حياتنا المرة . (١٢) » لكن هذا اليأس ، على ما فيه من مرارة لا يجرف صونيا الى هاوية القنوط . ذلك انها ، وقد هزتها العاطفة العنيفة ، تتمالك نفسها فتقف على قدميها وتستطرد قائلة وكانها في عالم من الاحلام الزاهية : « سنرى جميع شرور الارض وكل آلامنا وقد جرفتها النعمة التي ستملأ الارض باسرها بالغبطة ، وستكون حياتنا مسالمة جميلة لطيفة .. أنا أؤمن بذلك ، أؤمن به » .

وبعد ، ماذا عن الصلات الانسانية وكيف يعالجها تشيخوف؟ هذه الصلات التي تحدثنا عنها الناقدة الانكليزية البارعة فرجينيا وولف بقولها : «انه ـ تعني تشيخوف ـ يعد بحق أحسن محلل للصلات الانسانية واعمقهم ادراكا لها (١٣) » .

من الظواهر النفسية المعروفة ان في المجتمع الانساني عواطف وميولا ونوازع تتبلور في قيم عامة ايجابية وسلبية كالمحبة والصداقة والولاء والشرف والكرامة والغيرة والوصولية ، والرياء والمداجاة والتملق والتزلف والمكر والخداع والعداوة والتنافر والضغينة والحسد والجشع والانانية الخ. وهذه العواطف والميول والنوازع واضحة مركزة كل التركيز في جميع مسرحيات تشيخوف . ومن حصيلة هذه القيم تنبثق الصلات الانسانية : صلة الانسان بالانسان ، الفرد حيال الفرد،

والفرد حيال المجتمع ، والمجتمع ازاء نفسه نظرا للتمزق الطبقي الذي يقلب الوضع البشري من حالته الطبيعية السليمة الى حالة غير طبيعية ، مزورة ، مشوهة ، مزيفة . ومن ثم يعرض الانسان بصفته ممثلا مجازيا عن المجتمع وصلته بالطبيعة ، بالكون ، ومكانته في هذا الاوقيانوس الجبار !

يعالج تشيخوف هذه العلاقات معالجة هادئة رزينة تنم عن اطلاع واسع عميق على خبايا النفوس في صراعها المستمر من اجل السيطرة والاكتفاء الذاتي واشباع الرغبات وتطمين الحاجات ، وتحقيق الامال . وهذه المعالجة الهادئة عجيبة في امرها ، اذ انها تنتصب في ساحة الدراما على خلاف واضح مع الاصول الدرامية . فالدراما حركة، صراع عنيف يتدرج من السفح الاعتيادي السهل الى الذروة عبر الشعاب والمنعطفات الخطرة المخطرة . لكن الحال ليس كذلك مع تشيخوف ، فالفصل الدرامي بسيط ومعقد ، من غير عنف ، وقد يحدث عنف كما في (النورس) فهو عنف ، يصح ان يتصف بالهدوء . انه امر اعتيادي مالوف جرى على حسب السنة الطبيعية في الحياة من غير ضجة او صخب . ومن هنا فتشيخوف لا يرى في الصلات الانسانية الخارجية سبلا للسلوك الانساني من حيث هو سلوك فرد في وحدة اكبر من ذاتيته ، وانما يرى في هذه الصلات سمات مشتركة للوضع الانساني في ديمومته المترجرجة وفي صيرورته المتغيرة المتقلبة .

والوضع الانساني بمعناه العميق بوتقة للصلات المتشابكة ، صلات الخير والشر ، الفضيلة والرذيلة ، العلم والجهل ، الحقد وطهارة النفس ، الكبرياء والمروءة . وفي هذه البوتقة ينبغي ان نلحظ شخوص تشيخوف ، لا بصفتها الكوميدية او التراجيدية بل بصفتها الانسانية الشاملة التي تحتضن المأساة والمهزلة في صدر حنون واحد . هذا على حين ان «الكلاسية التراجيدية تعنى بشخوص غالبا ما يكونون انبل منا قدرا ، وهم اذ يجترحون الاخطاء ، قلما يفعلون ذلك بدافع اخلاقي – ومع انهم ليسوا اناسا كاملين ، فقد يلاقون – جراء الاخطاء – جزاء يبدو فادحا . فنشعر بالشفقة على البطل في عزلته المتنامية ، وفي تعاسته ، ونشعر بالخوف على مصيره الذي ربما يكون مصيرنا نحن (١٤) » . اما «الكوميديا الكلاسية .. فتعرض لنا شخوصا نشعر بتفوقنا عليهم ، فهم اشد حمقا منا وادعى الى الاسفاف والغطالة .» ومن هنا يتنفض التناقض الصارخ بين هذين الضربين من المعالجة الدرامية المحددة المعروفة . والظاهرة المعجبة في تشيخوف : انه بدلا من الانسياق الى هذا التقسيم الحدي التمس صياغة جديدة في رسم الشخوص وفي العرض المسرحي والفعل الدرامي نفسه . وبذا تمكن من خلق عالم من الشخوص الاعتيادية والصلات المالوفة والجو الانيس الذي يجمع بين هذه الشخوص وهذه الصلات على صعيد واحد . ومن الاشياء التي استند اليها في خلق عالمه الخاص الرموز التي تنوب عن الواقع انابة فيها فذلكة فنية رائعة كما فعل بطائر النورس في (النورس) وبستان الكرز في (بستان الكرز) والغابة العتيقة في (شيطان الغابة) . وبهذا استطاع ان يجمع بين الرمزية والواقعية . كما استطاع في تناوله الهادىء للشخوص والاجواء المحيطة بها ان يجمع بين الطبيعية وطريقته الفريدة التي استطاع بها ان يطوع المسرح من غير تقليد للمواصفات الدرامية المعروفة . ومع انه التجا في (ايفانوف) و (النورس) الى حيلة (المسدس) وهي الحيلة التقليدية الشائعة في التوصل الى الذروة الدرامية ، ولكنه غير تقنيته بعض الشيء في «الخال فانيا» وتخلص نهائيا من الحيل المسرحية في طرفتيه البديعتين «الشقيقات الثلاث» و «بستان الكرز» .

ومع ان تشيخوف يرسم شخوصه من الطبقة البرجوازية الصغيرة، أو من الطبقة الارستقراطية ، او من سواد الشعب ، فهو لا يتناولها تناولا مباشرا ، ومن ثم فان الحوار لا يكون مباشرا وبذا ينتفي الصراع الدرامي بمعناه المعهود ، ليحل محله صراع خفي لا يدركه القارىء اول مرة ، وانما يستطيع تلمسه بجلاء في دراسة النصوص او مشاهدتها على المسرح . وفي كلا الحالين يحتاج القارىء او المشاهد الى دقة البصر ونفاذ البصيرة وسعة الافق لملاحقته اذ ان تشيخوف ليس ظاهرة مسرحية سهلة الفهم والادراك .ذلك انه قوة ديناميكية جبارة احدثت ثورة في المسرح الحديث لا تزال تحظى باهتمام خيرة النقاد ، على الرغم من ان الكثيرين من الكتاب المسرحيين الذين عاصروه ، واستعملوا كل الحيل المسرحية في تثبيت شهرتهم ، قد جرفتهم الايام ، وظل تشيخوف كالطود الشامخ تنحسر امام جبروته الايام ذليلة وترتد متكسرة خائبة .

ان تشيخوف يعنى عناية خاصة بحياة الناس ، عامة الناس وخاصتهم ، في رتابتها وتفاهتها ومللها وكلالها ، وانغمارها في تناقل الشائعات والفودكا والقمار والدعاوى المتقابلة ؟ في بيئة غريبة من الخداع والغش ، « الازواج يغشون زوجاتهم ، وكذا تفعل الزوجات ، وكان ايا منهم لا يرى شيئا ولا يسمع شيئا . وكل هذه الفظاظة والتفاهة تحطم الاطفال وتطفىء فيهم كل ما ربما يعتور في نفوسهم من شرر فادح،وهكذا يصبحون هم ايضا مخلوقات تعيسة نصف ميتة(١٥)». مع ذلك كله ، فهو لا يفارق معبد فنه الرفيع ، ولذلك فهو لا يسف الى السوقية ابدا .

ان فن تشيخوف متشعب واسع طريف فيه اعماق دفينة ملاى بالجواهر واللآلىء النادرة ، لا يصل اليها الا غواصون بارعون ، اساتذة في فنهم ، عالمون بخفايا عالمهم ، وقلما يرقى استاذ في فنه مرقى ستانسلافسكي ، الممثل والمخرج العظيم وهذه هي شهادته : « لا ينضب لتشيخوف معين ، على الرغم من الحياة اليومية التي يبدو انه يرسمها في مسرحياته ، انه – في الواقع – يتكلم كل الوقت لا عما هو حدث طارىء وموضوع خاص ، بل عن الانسان بالمعنى الواسع من هذه الكلمة . وهذا هو دافعه الروحي الرئيسي.اما مسرحياته ، فهي مليئة بالفعل الدرامي ، لا بمظهرها الخارجي ، بل في تطورها الداخلي .» (١٦)

ومن هنا ، فليس يسيرا ان ندرس تشيخوف ، وان كانت الدراسة ممتعة شيقة ، وليس يسيرا ان نوفيه حقه ، وبهذه العجالة التي نحن بصددها ، لان ذلك يتطلب مجالا ارحب ، الا ان لتشيخوف حقا في اعناق كل من يشتغل بقضايا الادب عامة وقضايا المسرح خاصة . فهو من بناة المسرح الحي ، ومن اساطينه ومن الارواح الخالدة التي تحرس المسرح من عفاريت العبث والفساد والسخف والسطحية المبتذلة وهي الادواء التي تهدد حتى المسرح الغربي الحديث بالانهيار والتلاشي ، وهو ما هو عليه من رسوخ متاصل ومكانة متينة في الفكر الغربي ، قديمه وحديثه .

بغداد — **يوسف عبدالمسيح ثروة**



اميــل توفيــق

صور وانطباعات من رحلاتي في السودان

بقلم اميـل توفيـق

* * *

٦ ـ الرحلة الى القضارف

في اوائل ابريل ١٩٦٣ ، جاء اسمي ضمن الهيئة المنتدبة للاشراف على امتحانات المدارس الوسطى . بشمال السودان ، وشرقه . وقد توزع كل اثنين منا على مدرسة من المدارس، فكان نصيبي احدى المدارس في«القضارف»، وهي البلد الواقع على حدود الحبشة . وبدأت رحلتنا من بورسودان في عصر يوم ٤ ـ ٤ ـ ١٩٦٣ ، تمتعت خلالها بما شاهدناه من القطار من مناظر رائعة تتنوع بين عظمة الطبيعة الجبارة ، وعظمتها في الرقة الحانيـة . ففـي منتصف المسافة تقريبا ، راينا جبل «كسلا» يقف شامخا من بعيد بكتل عتيدة صلبة ، قدت من صخور كانما حطتها الطبيعة في كثير من العنف او كانما جبلت علـى مـرات عديدة . وتقع امام الجبل مناطق خضراء زاهية الخضرة ، تليها مناطق جرداء تماما ، تتفرق من حولهـا شجيـرات وغابات شجرية ـ كما راينا في الطريق منطقـة خشـم القربة بمعداتها وخيامها وهي المنطقة التي يقيمون فيهـا خزان خشم القربة ،الذي يحجز مياه الترعة التي يحفرونها لتغذي منطقة حلفا الجديدة ، بماء الري اللازم للزراعة . ومن العجيب اننا مررنا على مناطق متدرجة مـن حيـث طبيعة السطح الارضي ، فهي مستوية رملية حينا ، ثـم تنخفض فتحوي غابات بها شجيرات عاريـة او أعشـاب نحيلة ، ثم ترى كتلا رملية تنبثق من حولها نباتات جافه كانما هي ظامئة متعطشة للماء . ثم تأخذ التربة في الارتفاع لتحوي كثبانـا مـن الصخور الرملية اجمل مـا فيها انها تنبسـط في صفحات ملتوية ، تحتوي على تخطيط بديـع منقوش بيد الطبيعة ، غاية فـي النظـام الفوضـوي او الموزاييكي . وقبل هذه المنطقة وما بعدها حتى القضارف شاهدنا نافورات من الرمال . هل يمكن ان تغلي الرمال ؟ ان عند بقع مبعثرة .. هنا وهناك .. من بعيد ، تغلـي الارض وتنفث في كل بقعة هواءها ، فتبعث دوامة هوائية تشد معها ذرات الرمال فتعلو كانها نافورة مـن الدخـان الترابي او الرملي . وبالطبع كان ذلك وقت الظهيرة ، وقد علت الشمس في اتجاه العمود ، وصـار الجو شديـد القيظ ، خانق الحرارة . وعند مغرب الشمس ، أخـذت الظلال تكسو المناطق الجبلية في تدرج بديع منسق ـ فكان ما هو قريب منا ، يتلون بظل شديد حالك معتم ، ومـا يتلوه بعدا عنا ، كنا نراه مظللا بظلال مخففة العتمة ، ثم ما هو بعيد عنا ، كانت ظلاله باهتة تماما . وأبدع من ذلك روعة ان ترى بين هذه الجبـال المظللة منطقـة مائيـة أو ساحلا .. وما هي في الواقع بالماء ولكنه السراب «الذي يحسبه الظمآن مـاء » ..

حقا ان الطبيعة مفعمة بما تحتويه من عظمة وجبروت وحنان ، ولكن الانسان يضفي من خياله الخصيب ، لمسات من وعيه ومن عاطفته ، ما يجعل من مشاهدات الطبيعـة لديه لوحات حية مفعمة بالفن ، يحتفظ بها في ذاكرتـه لتصبح معنى من معانـي وجدانه المتألق بالحركة وطاقة الحيـــاة .

وتشتهر القضارف وكسلا بزراعة الحبوب ، وعلـى طول الطريق بينهما كنا نشاهد حقولا خضراء ، واخرى قد جنى الفلاحون محاصيلها . وعندما وصلنـا المدينـة استقبلتنا الهيئة المشرفـة علـى التعليم ، ثـم قادتنـا بالسيارات الى حيث الاستراحة الحكومية القائمـة علـى بقعة مرتفعة لا تبعد كثيرا عن المحطة . ويحيـط بهـذه الاستراحة سور من الاسلاك الشبكية التي تمنع دخـول الحشرات . ويتكون مبناها من عدة حجرات سقوفها على شكل القباب ، وكل حجرة منها او «قطية» قد طلي سقفها بالطلاء الابيض الناصع ليعكس حرارة الشمـس ، وقـد زودت في قمتها بفتحة تغطيها شبكة صغيـرة . ولقـد تفرقنا في حجراتها ، فاجتمعت كل مجموعة مؤتلفة فـي حجرة ، واتجه كرم اخواننا السودانيين الى ترك حجـرة جيدة الموقع للاجانب اعني لي ولاثنيـن مـن الاساتـذة الانجليز وقد شاركنا لمدة يومين المهندس المشرف علـى « مشروع المياه » المزمع تنفيذه في المدينة حيث ان المياه ما تزال توزع في صهاريج او خزانات تزود بها البيـوت والمؤسسـات . وليس في المدينة اضاءة كهربية ، ولكنهم يستخدمون مصابيح الكيروسين او فوانيس «الراتينة».

انما هناك اسرة يونانية تملك دارين للسينما ، ومحلات تجارية ، وقد أمدت جميع هذه الدور وما جاورها ، بالتيار الكهربي مساء من مولد كهربي خاص تملكه .

المدرسة التي اشرفت على امتحان تلامذتها ،تملكها جمعية خيرية على راسها معلم اميركي وزوجته الامريكية. والمدرسة تستخدم معلمين مصريين ومعلمين سودانيين بعضهم من الجنوب . واما ناظرها المسؤول عن الادارة التعليمية فهو مصري .

ولقد وجهت لنا الدعوة ـ في اليوم التالي لحضورنا ـ لزيارة رئيس الجمعية الاميركي في بيته لتناول الشاي . وكان حفلا هادئا انتظم فيه وسط فناء الدار المسيجة بالحجر والاسلاك ، عقد هيئة اتسمت بالروح الدولية . . او على الاصح روح الغريب الذي يرنو الى الصحبة والالفة والتفاهم ، فهذا مدرس قادم من صعيد مصر ، يحادث زميلا آتيا من شمال ويلز ، وهذا حلفاوي وقد جلس الى الاميركي الذي ينتمي الى أسرة ريفية ، وذاك انجليزي وقد انهمك في حديث مع سوداني تعلم في الهند . . وتناولنا الشاي على انغام الموسيقى الغربية ، ووسط احاديث عفوية عن مشكلات السكن او معضلات التعليم في السودان ـ اشتركت فيها الزوجة ربة الدار ، فأضفت من ترحيبها وضيافتها وهي تقدم لنا صنوفا مختلفة من « الكيك » والمرطبات ـ اضفت جوا عائليا هانئا . قلت في نفسي ، ما أحوج الناس ، على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم ومذاهبهم ومشاربهم الى ان يجتمعوا فيتعارفوا . وان يتبادلوا الزيارات ، وان يتفهموا الثقافات ، وان يدرسوا الحضارات ، ويتعرفوا النفسيات ، وان يتحسسوا الآمال والاحلام في كل بلد وفي كل اقليم ، وما أحوج السلام العالمي ، الى اتصال الشعوب ، واستقبال بعضهم للبعض حتى يفتح الناس جميعا قلوبهم للحب فيما رسونه، وللخير فيفعلونه ، او في القليل حتى تستنير العقول للفهم والتفاهم وتقبل الاراء ، وتمحيص وجهات النظر المختلفة ، في روح العدالة والانسانية والاخاء .

ولقد رد اخواننا السودانيون الجميل بأجمل منه : في حفل عشاء أقاموه في منزل احد ثراة المدينة . وتميز الحفل بطابعه السوداني الاصيل من حيث المأكل والمشرب والموسيقى والغناء .

وفي جولة مع ناظر المدرسة ، وفي سيارته ، استطعت ان الم ببعض من معالم المدينة ، فالقضارف تبدو كأنما تقع في سفح المرتفعات والتلال المحيطة ، التي انشىء على قممها ثكنات الجيش وهي قوام الثكنات التي استخدمها الجيش المصري في عهد الخديوي اسماعيل عندما بدأ التحرك نحو الحبشة . وفي وقت زيارتنا للقضارف لم تكن الاشجار او الاراضي مكسوة بالخضرة ، كالعهد بها ـ كما يذكرون ـ في أشهر نوفمبر وديسمبر ويناير . ان الجو جو الخريف ، وقد تعرت الاشجار والشجيرات وبدت نحيلة جافة . ولقد مررنا بمعظم احياء المدينة المقسمة الى رحلات (جمع رحلة بكسر الحاء) والحلة مجموعة من البيوت المبنية من البوص والجريد بطريقة ماهرة بواسطة بنائين مختصين في مثل هذا النوع من التركيب البنائي . وفي بعض هذه البيوت تجد الالات والادوات الحديثة كالراديو او الثلاجة التي تدار بالكيروسين . على ان مجلس البلدية قد خصص قطعا من الارض ، وشرع يشجع بناء البيوت المدنية من الطوب او الاحجار والاسمنت ، كما بنيت بنفس الطريقة المحال التجارية ، والمدارس ومخازن الحبوب ، والمستشفى والدور الحكومية . ويسكن القضارف عدا السكان الاصليين كثير من أهل الحبشة ، ومن الهنود ، ومن اليونانيين والمصريين ومعظم هؤلاء يشتغل بالتجارة .

وهناك عند مخارج البلدة ، وعلى سفوح تلك المرتفعات تجد بئرا هنا ، او عينا هناك . . منبثقة من جوف الارض. وقد التف حولها بعض الاهلين واخذوا يستقون منه او يملأون الجرار . ومن المناظر التي استرعت انتباهنا ، منظر قافلة من الجمال كانت تقل بعض الرجال ـ وهم في الغالب من الرعاة ، او ممن يعتمدون على الامطار في زراعة ارضهم الواقعة على الحدود بين القضارف والحبشة. هؤلاء قد قدموا فملأوا قربهم الضخمة بالماء وشرعوا في العودة «لحلتهم» بقرب ارضهم . وشاهدنا ، ونحن في الطريق وعلى بعد كبير من قلب البلدة ـ بقعة ارض محفورة يبلغ قطرها حوالي ثمانين مترا وهم يسمونها بالحفير . وقال صاحبي ان امثال هؤلاء الناس العائدين بالقوافل انما يحفرون امثال هذه الحفرات بجوار ارضهم وحلتهم ، وعند سقوط الامطار يمتلىء الحفير بالماء ، ومن ثم يستخدمونه طوال موسم الامطار ، سواء كان ذلك للشرب (باستخدام الازيار) او في الاغراض المنزلية والمعيشية الاخرى . وعند الجفاف ، يستعينون بمياه الآبار البعيدة عنهم في قوافل تروح وتغدو يوميا ، وقد تناوب الرجال في الحلة ، تسيير القوافل ، في روح من التعاون والاخاء الصادقين .

ولقد بارحت المكان وصورة هذه القافلة برجالها ما تزال تطرق ذاكرتي ، وتمر في خاطري ، وتثير تأملاتي . فان هؤلاء الرجال وامثالهم انما يواجهون الطبيعة وجها لوجه ، ويقفون امامها مباشرة صفا واحدا ، ويعيشون في المغامرة بروح التحدي لمصاعبها . وهم ينتمون لا الى طبقة منهم ، ولكنهم ينتمون جماعة متراصة متآلفة الى الارض ، مصدر رزقهم واساس معاشهم ، بل ان ارتباطهم لجماعتهم وللارض ارتباط شديد متين . ولقد وضحت أمامي الصورة المقابلة ـ للمدينة الحديثة ـ حيث تقسيم العمل والتنصص والتركيب المعقد للمجتمع ، ومهما يكن من مميزات عظيمة تقترن بالمجتمع المدني الحديث ، فان آفته هي ما نلاحظه في سياق التطور من البدائية الى

البحيرة

الجزائـــــر

الدكتـور جمـال مرسـي بـدر

مـن وحـي جنيـف

لف الشتاء الكون في برد رمادي كثيف
وتكسرت تحت الخطى في الدرب اوراق الخريف
وعلى الضفاف اصطفت الاشجار صامدة تعاني
مقرورة والريح تعوي حولهـا في كل آن
وغصونهـا الجرداء تلتمس الضياء
كذراع أجـذم مدهـا نحـو السمـاء

لهفي على الامواج يلهب ظهرها سوط الرياح
والطير عند الشط منكمش وقـد كل الجناح
ان رام خوض الماء ألزمه التواء الزمهريـر
أو حدثته النفس بالتحليق .. أنى ان يطير
عـزم تمرد ثم أذعـن للقضاء
وطلاقة أودت بها كف الشتاء

خلت السماء من السنا..خلت البحيرة من شراع
كم كان طاف بها وللنور انتفاض والتماع
وكسا الرماد القبة الزرقاء والعشب الندي
فتلاشت الالوان في لون كئيب أوحد
وتململت اذ ذاك أرواح ظمـــاء
تزداد وحشتها اذا جـاء المســاء

البرد يلفحها فترتعد العواطف في الظلام
آمالهـا ارتعشت كما تصطك في قبر عظام
ساق الملال زمامهـا وأغم غايتهـا الضجر
كالدرب غابت في الوحول صواه اذ هطل المطر
فسآمة دبـت الى القلب الخواء
وجهامـة جثمـت علـى صدر الفضـاء

وشتـاء نفسي يا بحيرة مثل فصلك ذا الكئيب
روحي كطيرك عاقها الاعصار عن أفق رحيب
روحي كدوحك جردتها الريح من ثمر ينيع
لكنها ليست كمثلي فهي ترتقب الربيع
وأنا المولـه لم يعد عندي رجاء
ناديت لكن من يصيخ الى النداء

المدنية ، من انفصال بين القرية والمدينة ، ومـن تفتـت الولاء ، ومن ضعف الارتباط بالارض وبمصدر الرزق ، ولست في هذا المقام اصدر حكما او اناقش قضية التطور الاجتماعي، ولكنني هنا ارى ــ من واقع شعوري وادراكي، ان الانسان المتحضر الحديث في حاجة الى تقوية لشعوره بالانتماء للانسانية جمعاء ،بجانب تقوية بالشعور للانتماء للارض . ان انماء الفردية والاستقلال الفـردي ــ وهـي ميزة التطور المدني ــ يجب ان يسير فـي اتجاه يجمـع بين قطبين رئيسيين هما الارض (او الوطن) والانسانية جمعاء . ذلك هو خط التطور السوي .

شبين الكوم ــ ج.ع.م

اميل توفيق

خرج زهزوه افندي في الصباح الباكر الى عمله الجديد ، وكان قد تلقى امرا مشددا بالمحافظة على المواعيد ، ويبدو ان ذلك قد دفعه الى الخروج قبل الموعد بوقت طويل.

مضى في اطمئنان يستحث خطاه في مرح ظاهر ونشاط غير معهود . فقد كان يعيش طيلة الاشهر الماضية في قلق مستمر ويأس وخمول . وهو الان لا يخفي ابتسامة تعلو شفتيه وتوشك ان تنفجر اذ لم يستطع التغلب على هذا الشعور الطارىء الذي يملأ نفسه ـ الشعور بأنه رجل جديد .. بل ان كل شيء يبدو امامه جديدا ، المارة في ملابسهم النظيفة والسيارات الفخمة والاشجار المتناسقة البديعة .

ولم يكن في الامر غرابة . فقد حرص في يومه هذا على السير في الشارع الرئيسي بالمدينة . اما ذلك الطريق الذي تغوص فيه الاقدام ويثور فيه الغبار والذي تعود السير عليه فيما مضى فلن يطرقه بعد اليوم في مغدى او رواح ، مخافة ان يتعلق شيء منه بردائه الوحيد . وهو لم ينس ان زوجه قضت شطرا من نهارها تحتال على هذا الرداء بالصبر والاناة حتى ردت اليه انفاس الحياة ثم غسلته برفق وفي اشفاق. ثم سهر هو الليل في كيه .

وقد ودعته زوجه عند الباب وهي توصيه بالمحافظة على ردائه . وفي الوقت نفسه اخذت تبعد عنه اولاده الذين احاطوا به من كل جانب وهم يقفزون حوله ويصخبون فرحين بالعمل الجديد الذي ظفر به ابوهم بعد ايام من عطالة مريرة . وكان يومهم هذا عيدا من الاعياد السعيدة. وهو بدوره فرح بفرحهم ولو انه كان قبل ذلك يسخط عليهم ويدعوهم «بالعفاريت» لانه يعزو اليهم فشله المتكرر في أعماله الماضية .

ونظر الى الوقت في ساعته وقد كان قبل يومين اثنين يحاول بيعها مضطرا ليجتاز بها اياما سودا ، والحمد لله فقد ولت تلك الايام واصبحت في ذمة الماضي . وهو الان يشكر الله الذي هيأ له هذه الوظيفة الجديدة في هذا الزمن العصيب ، فيستخفه الفرح ويشعر بنشوة غريبة كلما تذكر المرتب الضخم ويراوده امل جديد بل آمال كبيرة في حياة سعيدة قد انفتح بابها على مصراعيه .

وبعد قليل سيجد نفسه في محل عمله اكبر المحال التجارية بالعاصمة. ما اروعه من محل كبير مكتظ بكل انواع السلع الراقية . وهذه المناضد المستطيلة الجميلة ومن ورائها يقف الموظفون يستجيبون لطلبات العملاء ولقد خصص لكل موظف منضدة ،



بقلم محمد صالح ابراهيم

فما ابدع هذا النظام . ولما تذكر منضدته المخصصة له اهتز طربا . انها اول منضدة على الباب !

ولم يعد يهتم بمناظر الشارع الرئيسي ، وواصل السير . ولما اقترب من محل عمله الجديد شعر برهبة . لقد طافت بذهنه صورة ذلك الرجل البدين ذي المنظار الاسود الضخم . ذلك الرجل الصارم قليل الكلام عابس الوجه . ذلك الاجنبي الاصم الذي لا يعرف كلمة عربية واحدة .. لم يكن يهمه من الامر شيء اولا ان هذا الرجل الرهيب



هو صاحب المحل .

وبالامس قال له في حدة وغلظة يجب ان تتحدث الى رواد المحل بلطف وادب وابتسام . فان ذلك اول شرط من شروط الخدمة .

ورأى نفسه وهو في الطريق وقبل ان يصل محل عمله قد بدا في تنفيذ هذا الشرط . لقد وضع على ثغره الابتسامة المطلوبة لاستقبال الرواد. ولكنه أدرك انها ابتسامة متكلفة لا روح فيها . وانه من العسير عليه ان ينقلب في يوم واحد ضاحكا بشوشا بعد ان طال عبوسه وتمكن منه الضيق والنكد بسبب اولاده العفاريت .

دخل المحل بخطى ثابتة ولكن كان قلبه يدق كالمطرقة . ومع ذلك فقد حرص على ان يبتسم ـ اية ابتسامة والسلام . واستقبلته عينا صاحب المحل الجالس في اقصى ناحية يستطيع منها ان يراقب كل شيء . ورأى زهزوه افندي ان من اللياقة بل من حسن البداية ان يؤدي التحية لمخدمه . ففعل ذلك بانحناءة قصيرة وابتسامة خفيفة . وتلقى الرد على تحيته بما غمه وخيب امله . **ذلك** ان مخدمه غض بصره وتشاغل بما لديه من اوراق وكان اول القصيدة كفرا .

واتخذ زهزوه افندي مكانه خلف المنضدة الخاصة به وهو في حال مضطربة من فرح ورهبة . لقد سره انه كان اول قادم من موظفي المحل واخذ يتأهب لاستقبال الرواد ، ويشجع نفسه ويؤكد لها النجاح التام . والفى نفسه يفكر ويغمره السرور ، لقد كان عاطلا فوجد عملا، وعملا ذا اجر كبير مغر . لا بد له اذن ان يتغاضى عن كل شيء ويحتمل كل شيء حتى لا يفلت منه هذا العمل . ينبغي له ان يعض عليه بالنواجذ .

واجال بصره على الارفف الكثيرة المكتظة بشتى البضائع الوانا واشكالا. انه لن يجد صعوبة في العمل . فكل شيء منتظم . وكل صنف عليه بطاقة

بالثمن المحدد . فاذا قدم من قـدم استقبله بترحاب وابتسامة عريضة وقدم له ما يطلب وجعله في لفافة من الورق وحزمه بها . ومـا علـى المشتري الا ان يخطو الى الصـراف ويدفع الثمن ثم يعود اليه فيناولـه اللفافة بكلتا يديه وينحني له شاكـرا مقدرا مبتسما . هذا كل ما هنالك . وهو من السهولة واليسر بمكـان . ولسوف يشهد صاحب المحـل ان زهزوها قد ادى عملـه على احسن وجـــه .

ودلف احد الموظفين الى المحل في هدوء وسكون . فلم يرفـع بصـره ليلاقي به عيني صاحب المحـل . والاغرب من ذلك انه ما ابتسم ولا انحنى ولا حيا .. وتكرر هذا المنظر من كل الموظفين . وتطلع زهزوه الى وجوههم فلم ير فيها اثرا للبشاشة ولا الابتسامة ، لا بأس . ربما كانوا يدخرون ذلك لاستقبال الرواد . ولم يمض وقت طويل حتى اقبل الـرواد جماعات وشتى ، واكتظ بهم المحـل ودبت الحياة فيه . ووجد زهـزوه افندي نفسه في عمـل متواصـل مرهق يكفي لتحطيم اعصابه .

عاد زهزوه افندي في المساء الى بيته بشعور آخر وتفكير جديد . ولم يكن يحتمل اي ابتسامـة اخـرى يضعها على ثغره .

واستقبلته زوجته وابدت ملاحظتها الاولى على ردائه الـذي اتسـخ ، وقررت ان تسهر عليه الليل لاعداده نظيفا محترما لليوم التالي .

واحاط به اولاده العفاريت فرحين بعودة ابيهم وهو لاه عنهم . واخذت الزوجة تسأله عن عمله الجديد فـي لهفة وشغف . قال انه عمل مرهق وجديد عليه ، وانه قد وجد نفسـه مضطرا للتصنع والتكلف اكثر مـن اللزوم . وانه قضى يومـه معذبـا ولكنه ادى عمله بسلام ، وان عليـه ان يتعلم شيئا جديدا منافيا لطبعه حتى يستمر في عمله ، فالمرتب كبير يغري بتحمل المشاق . وقالـــت زوجته ليتها تستطيع ان تشاركه في تحمل هذا العبء الثقيل حتى يحافظا معا على هذه النعمة التي نزلت عليهما من السماء . وكيف السبيل الـى المحافظة عليها وهذا الشيطان الاصم لا عمل له الا ان يتصيد الاسبـاب لزوال النعم . فهو يجلس الى مكتبه لا يبرحه ولا يمل المراقبة . يصـوب نظراته على كل شيء وعلى كل احد . ولا يتحدث بل يطرد بدون كلام .

ــ يطرد بدون كلام ؟!

ــ نعم ولقد حدث ذلك فعلا . طرد احد الموظفين لساعته فلم يمهلـه لحظة واحدة يعتذر فيها او يدافـع عـن نفسه .

ــ لعله اتى امرا منكرا يستحـق عليه هذا العقاب .

ــ كل ما فعله انه تـرك العميـل يخرج دون ان يبتاع شيئا . لقـد شعرت عندئذ انني أقف على حافـة هاوية . فينبغي ان أحسب حسابـا لهذا الشيطان اللعين . ينبغي لي ان احترس . ان اية زلة تصدر مني ولو كانت عن غير قصد تردني الى قاعـة الطريق كما كنت . ان العمل فـي ذاته سهل . ويستطيع المرء ان يروض نفسه على تكاليفه . ولكن يجـب ان نعمل شيئا نتغلب بـه على صرامـة صاحب المحل وكسر شوكته ، فماذا تقترحيـن ؟

وهنا اقترحت الزوجة ان يقيمـا للشيطان حفل عشاء بالمنزل . فان الناس في هذا الزمن يعملون هكـذا لكي يعيشـوا .. ولكن المنزل غيـر مناسب لمثل هذا الحفل . وسألتـه الزوجة هل يجب ان نبقى في هـذا البيت العتيق بعد اليوم ؟ انـــه لا يليق بمكانتك كموظف محترم فــي اكبر محل تجاري بالعاصمة .

واتفق الزوجان على الرحيل فورا الى منزل محترم بالدرجة الاولى في المدينة يليق بمركز الزوج ويناسب الحفلات المنتظرة . ولكن قامت في وجههما مشكلة جديـدة ، اثارتهـا الزوجة الواعية حين تساءلت فـي يأس وحزن : اين الاثاث المناسب لبيت في الدرجة الاولى ؟! ولم يطل بهما الوقت حتى اهتديا الى حـل موفق وهو ان يحصـل الزوج علـى الاثاث الفاخر بالتقسيـط . واذن فلترجأ حفلة العشـاء الـى المنـزل الجديد واثاثه البديع . وهذا امـر يتم في اقل من اسبـوع . ونـام زهزوه افندي قرير العين نوما هانئا تتخلله الاحلام السعيـدة . بينمـا قطعت الزوجة شطرا من الليل فـي غسل ردائه وكيه وهي تغني بصوتها الرخيم انشودة الغد المرجو .

وبعد اسبوع انتقل زهزوه افندي واسرته الى منزل انيـق بالدرجـة الاولى في العاصمة . وقد جهـزه بأفخر الاثاث وعلى احدث طراز . وبدا كل شيء في نظر الاسرة جديـدا . وهذا الانتقال المفاجيء في حياتهـا كان موضع دهشة من الجميع .

وابدت الزوجة ملاحظتها في شيء من الاشفاق . قالت ان ايجار المنـزل مرتفع . ورد عليها ابو العفاريت ان مرتبه الضخم يتحمل سداد الاجرة في اول كل شهر ، وانه قد التـزم بعقد ابرمه لمدة سنتين . فهو مطمئن الى البقاء في هذا المنزل عامين على الاقل . وسيدفع ثمن الاثاث علـى اقساط شهرية تنتهي بعـد عـام . وسيرفع مرتبه بعد ستة اشهـر . وسيمنح مكافأة من الارباح السنوية اسوة بزملائه الموظفيـــن .

وابتسم الزوج والزوجة والاولاد وتـبادلوا النظرات من عيون تشـع بالامال الكبار . ثم تعالت صيحـات الفرح والغبطة من كل جانب .

وقفـزت فكـرة الحفـل وسط الضجيج . فقد تهيأ لها المنزل المناسب واثاثـه الجميل . وراى الزوج انها تحتاج الى مبلغ ضخم من المال ثـم ساد السكون .

وابدى زهـزوه افندي خوفـه واشفاقه من ان يفسد أولاده جـو الحفلة . وهنا حملق العفاريت فـي وجه أبيهم . وتعهدت الزوجـة ان

تفادي وقوع الحوادث المؤسفة . ولم يقتنع زوجها واقترح ابعاد الاولاد عند خالتهم في ليلة الحفل . انه يخشى منهم . يتوقع ان يفسدوا عليه كل شيء . واعترضت الزوجة واحتجت بان في ذلك حرمانا للاولاد من حفل بهيج كهذا يقام مرة في العمر ، واصرت على ان يشترك الاولاد فيه ، وسوف تعلمهم اللياقة وآداب السلوك .

وتذكر زهزوه افندي ان هذه اول مرة يقيمون فيها حفلا كبيرا لمناسبة عظيمة هي عنده من المناسبات التاريخية في حياة الاسرة ، وانه يخشى الفشل وما يعقبه من ندم وحسرة اذا جاءت النتيجة على العكس . وتداول الامر مع زوجته ، وتم الاتفاق بينهما على ارجاء الحفل الكبير واقامة حفل صغير على سبيل التجربة يتاح فيه للزوجين ان يدربا انفسهما على الحفلات كما يدربا اولادهما العفاريت على ان يكونوا ملائكة .

وهكذا ارجىء الحفل الكبير الى اول الشهر على ان يقام حفل تجريبي في مساء غد يضع فيه الزوجان كل ما يملكان من مال . فانه ينبغي ان يكونا سخيين في مثل هذه الامور وخاصة لانهما يعملان للمستقبل ويحتاطان لحفظ النعمة من الزوال. واقترحت الزوجة ان يكون حفل الغد قاصرا على افراد الاسرة وان يكون ضيف الشرف فيه احد اقاربها . وبقي شيء واحد تتمناه وهو الخروج بالاولاد للتريض بعد اعداد كل شيء. واستجاب الزوج لرغبتها وطلب اليها ان تمر عليه هي والاولاد في المحل ليعودوا معا الى المنزل – الى الحفل.

وجاء الغد . وبينما كان زهزوه افندي قائما خلف المنضدة في محل عمله في المساء ، قدمت الزوجة ومن خلفها اولادها . ودخلوا المحل يعلو وجوههم البشر والسعادة . كانت اول مرة يزورون فيها ذلك المحل . لقد فرغت الزوجة من اعداد الحفل ورتبت كل شيء وجاءت مع اولادها لتصحب زوجها من محل عمله الى المنزل ، الى الحفل ، لينعموا بليلة ساهرة سعيدة .

وقفت تنظر في ارجاء المحل الكبير وتصعد نظراتها الى الارفف وما عليها من الوان جميلة جذابة ، بينما أخذ اولادها العفاريت يروحون ويجيئون هنا وهناك في صخب وابوهم يزجرهم ويأمرهم بالتزام الهدوء والسكينة . واراد العفاريت ان يستولوا على بعض سلع اعجبتهم وهذه أمهم تنتزعها من ايديهم وتمعن النظر فيها وتبدي اعجابها هي الاخرى ثم تضعها في مكانها .

جلبة وصياح وقفز هنا وهناك . لقد كان الاولاد عفاريت حقا . واراد أبوهم ان يمنعهم خوفا على وظيفته من الضياع . لان صاحب المحل وان كان أصم لا يسمع صياحهم الا انه كالصقر يرى ويرقب من بعيد ، ولا يرضيه هذا العبث . انه رجل حازم الى اقصى حدود الحزم .

ولما لم يستمع الاولاد الى ابيهم اضطر ان يعبس في وجوههم وينتهرهم ثم يطردهم خارج المحل ، ويطلب من زوجته ان تنصرف الى البيت بأولادها وسيلحق بهم بعد قليل. فتنصاع الزوجة لامر زوجها وتنصرف مع اولادها وفي وجهها شيء من الوجوم . لقد كانت تريد ان تصحب زوجها .

وتنفس زهزوه افندي الصعداء ، ولمح نظرات صاحب المحل مسددة اليه في غضب شديد . وادرك انه كان مخطئا حين سمح لاولاده بالحضور اليه في المحل . لا بد ان صاحب المحل قد اخذ صورة سيئة عن اسرته . لا بد انه سيرفض الدعوة اذا ما وجهت اليه لحضور الحفل الكبير الذي سيقام له في اول الشهر.

وبعد لحظات استدعى صاحب المحل زهزوه افندي فخف اليه وانحنى امامه ووضع الابتسامة العريضة على ثغره المرتجف . وهم ان يبادره بالاعتذار عما فعل اولاده. ولكن قبل ان يعتذر فاجاه صاحب المحل بقوله : ان شروط الخدمة في هذا المحل تفرض عليك ان تعامل كل احد من عملاء المحل بلطف وادب وبشاشة . وانك قد اخللت بالشروط واسأت الى سمعة المحل بموقفك المشين مع الليدي المحترمة واولادها الصغار مما جعلها تخرج واجمة غضبى ودون ان تبتاع شيئا . ولذا فاني قد استغنيت عن خدمتك .

وبهت زهزوه افندي واراد ان يوضح لهذا الشيطان الاصم ان الليدي المحترمة هي زوجته واولئك هم اولاده العفاريت . ولكن قبل ان يفتح فاه رفع الشيطان اصبعه في غضب وثورة وقال اني لا افهم غير ما قلت . اخرج من هنا . اخرج !

وخرج زهزوه افندي متعثرا الى قارعة الطريق ليدرك الحفل .

الخرطوم **محمد صالح ابراهيم**

لبنان

★

ها هنا الخصب والدنى الاريحيه
ها هنا الليل في الاماني الشهيه
ها هنا مسبح الخيال طليقا
يملا النفس نشوة شاعريه
نعم لبنان شاطئا وجبالا
قد أطلت عليه عظمى بهيه
زهرة العيش فهما تتوالى
في النقيضين ثم تبقى مزيه
بسمة الثلج في الذرى كل صبح
وهي تهمي بادمع لؤلؤيه
بسمة الثلج للمفاتن شاعت
وتداعت برقة غزليه
حولها الارز اذرع مشرعات
حاميات مؤديات تحيه

مكة المكرمة **ابراهيم العلاف**



النخلــة ... والجيـــــران

قصة عراقية طويلة ـ تاليف غائب طعمة فرمـان ـ ٢٨٤ صفحـة ـ منشورات المكتبة العصرية ببيروت ـ المطبعة (؟)

ـ هل قراتهـا ؟

ـ اقرأها .

انها حدث أدبي يبني مرحلة جديدة في تاريخ القصة العراقيـة ويؤلف بدءا يختم تاريخا نيف على الاربعين عاما من محاولات متواليـة على غير انتظام وتجارب متصلة على انقطاع .

ـ فما هذه النخلة ؟ ومن هم هؤلاء الجيران ؟

ـ انهم ، انسان واحد ، فالاحساس عام والعواطف متبادلة والالفة قائمة . النخلة قميئة ، ولكنها جزء لا يتجزأ من وجود سليمة الخبازة، وهي ادخل في حياتها من زوجها المرحوم وزوجها الــذي سيعقبه . «الطولة» متهدمة قذرة ، تغرقها مياه الامطار ، ولكنها هي والخيل بعض يكمل بعضا من كيان الجيران .وترتبط هذه المجموعة بتلك خيرا وشرا.

وكل ما في القصة من شرائط الفن كائن وغير كائن ، اي انه خفي سحري ، حبك بدهاء وحكمة .

في القصة وصف للمكان ، ووصف للاشخاص ، ولكنه موزع على الصفحات في الوقت المناسب ، لك منه ما يميز لك الطريق ويعرفك بالسمة الدالة ويهيء الجو اللازم للفهم والاستمتاع والمتابعة والانسياب.

وفي القصة بطل ، ولكنها ليست قصــة ذات بطل وخــوارق ومغامرات ، وانما هي مسيرة هادئة حتى في معمانها ، وانها كل وان تميزت فيها اجزاء . قد تبدو سليمة الخبازة بطلتها ولكن ما أســرع ما يبدو حسين او مصطفى ، او.أو.. ان البطل فيها قد وزع على كل من فيها ، وكل ما فيها . ألم تكن النخلة ـ مثلا ـ بطلة ! وقد يشغل بالك رديف وقد تشغله نشمية ..وكل شيء.ولا تستطيع ان تقول انها اكثر من قصة في قصة ، لان الاجزاء غير منفصلة وانها من الاتصــال بحيث تنهض وحدة متماسكة .

تصور القصة المجتمع العراقي خلال الحرب العالميــة الثانية ، ولكنها ليست تاريخا وقد اكتفى المؤلف من الزمان بما يكون بعدا لعمله الفني والتقط من تاراته ما اتصل بحياة القصة وما زادها قوة الى قوة. انه امرؤ لا يريد ان يثقل على القارىء بشيء ولا يريد ان يكون مؤرخا. اما المجتمع العراقي فواسع جدا اخذ منه القاص أضاميم واضابير ولمحا وملحا تتصل بروابط وتقوم ضمن اطار ولم يرعه ان يضحي بكثير مــن المعلومات وبكثير مما يعرفه معرفة تامة لانه ليس دارسا اجتماعيا .

هي قصة عدد محدود من عامة الناس يعيشون في مكان بعينه مــن بغداد ويشتملون على وحدة صغيرة لها نظائرها في بغداد ، وقد خرجت القصة عن المحلية الضيقة بانسانيتها العميقة النابغة من عمق المحلية ، بما يمكن معه ان يعيها الغربي والشرقي ويجتذب به الغريب والقريب، كل يجد جانبا من نفسه ووجدانه ، وجانبا لنفسه ووجدانه .

جاء هؤلاء الناس بسطاء كما هم على الارض ، دون ان يتدخــل المؤلف او ان يشعرك بتدخل ، ودون ان يتعصب لهذا او يتعصب على ذاك ، بل انه يترك عددا من شخوصه يقولون ما لا يقول به ، ويفعلون غير ما يريد لهم ان يفعلوا ، والا فهو محب لهم مدافع عنهـم ، وهل اكثر من ان يكون منهم واليهم ! ولكـن للفن مقتضياته .

و «كما هم » كلمة تقال ، وهي ذم لقاص وان بدت مدحا . لان الفن لا يعني النقـل الرخيص مهما يكن هذا النقل مخلصا وأمينا ودقيقا ، وانما يعني انك تقدم الشيء كما هو وأحسن مما هو ، وانك لا تجعل منه قصـة حتى تتمكن من المرحلة التي تجعل بها حدث الحياة نوعا فنيـا ـ وهذا ما تحقق لغائـب .

ان سليمة الخبازة في القصة خير مما هي وراء التنور ، ورديف خير مما هو على السطح .. وهكذا . ان الواحد من هؤلاء لا يعنيك كثيرا في حياته اليومية الرتيبة ، ولكنه يملك عليك السبل وانـت تــراه علـى الــورق .

وغائب قريب جدا من شخوصه ، وقد يكون رأى اكثرهم او رآهم كلهم : لحمهم ودمهم وعظامهم ، وقد يكون واحدا منهم . وليس ذلك مهما قدر ان يقنعك المؤلف ـ من غير ان يبدو لك ذلك ـ انه يتحدث عما رأى رأي العين وذاق ذوق اللسان ، فتنقاد اليه طوعا ، والا فليس من المعقول ان يكون غائب رأى كل هؤلاء كما أرانا اياهم ، والقصاص وحده يستطيع ان يكتب قصة قد يؤلفها من لا قصة ، ومن اشتـات لا يكون الشت الواحد منها قصة .ولك ان تقول ان اجزاء «النخلة .. والجيران» لم تكن قصة على الارض ولكن صاحبها جعلها قصة رائعـة علـى الــورق .

ها هوذا الكتاب امامك . أعده من الحرف الى التراب وانقله من مطاويه الى موطنه الاصلي. أيبقى قصة ؟ أشك في ذلك .

انك تمر بهؤلاء الناس في غدوك ورواحك فلا ترى منهم غير مظهر ، ولا يثيرون فيك اهتماما يذكر ، اما لدى غائب فهم حياة مكتملة الجوانب بعيدة المنافذ ، وهم نفوس لها ما للنفوس من حالات واطوار ، واذا انت ازاء قصة نفسية لها ما للقصة الحديثة من مزايا المواقف والاوضاع ، والتغلغل الى العواطف والاخيلة ـ ولكنها نفسية بقدر .

تقرؤها فتنسجم واياها ، ولا تعرف أنها نفسية الا عندما تنتهـي وتدرس وتصنف وتحاول ان تلخص ، والا فلم تر فيها ما يلزمك بالشعور انك تقرأ قصة نفسية .ليس فيها كوابيس ولا أحلام يقظة ولا عقد نقص ولا فرويد.. ولا ولا.. وقد يكون فيها كل هذا او شيء من كل هذا ، ولكنك لم تشعر وانت تقرؤها انفيها هذا .ان المؤلف يانف من المفاجآت الرخيصة والمبالغات المفتعلة ، ويانف من كل هلوسة وسوداوية وما الى ذلك بسبيل . ان النفس لديه دقة في تحسس المد النفسي ولباقة في تحسس جزره .

وانساب هذا القدر المقدور من العنصر النفسي مع مسارب اخرى فمنح ـ هو وهي ـ القصة قدرا من الشاعرية حباها رواء وزادهـــا ازدهاء . وكانت هذه الشاعرية مذابة في الحرف على نمط ما هو باق في صميم الواقع الاجتماعي من سحر قديم .

ان علاقات العامة ضرب من الشعر ، علاقات بعضهم ببعض ايجابا وسلبا ، وعلاقاتهم بالحيوان والجماد ، انهم يتصلون شديدا بكل مـا يمت الى حياتهم بسبب . شانهم في ذلك شان لغتهم واوصافهــم وأخيلتهم وافكارهم وتعبيراتهم الحادة وتشبيهاتهم الغريبة ، تخالهـم رومانتيكيين موغلين بالرومانتيكية . وعليك اذا اردت ان تكون قصاصا واقعيا ان تحتفظ بهذه الشاعرية وان تقدمها لقارئك ندية طرية كمـا هي ـ وأحسن مما هي .

كل شيء لدى غائب يقدر من قبل ومن بعد ، فلا هذر ولا ثرثرة

ولا زيادة ولا نقصان ، لقد وزعت النسب توزيعا عادلا من اجل كل مبدع ، وقد سار على نسبة الاشياء في الحياة اليومية مراعيا نسبهم في مقتضى الفن . انه يتكلم بميزان ، لان الفن يعني السيطرة التامة على كل خطوة ، والسيطرة تعني حذف الفضول ، وحذف الفضول من اكبر أدلة الاستاذية ، والا فما أسهل على غائب من ان يطنب ويطيل وهو العارف بالميدان الذي يصول فيه ويجول ، ولديه عنه الكثير الكثير من المعلومات والخبرات .

لقد كان غائب استاذا امسك بالزمام فما ترك امرا يفلت ، وشدد الحراسة فما سمح لغريب ان يدخل ، كان استاذا اذ رسم الخطة ، وكان استاذا وهو يجمل من النقاط فصولا ، وكان استاذا عندما انتهى فاعاد القراءة كأنه الناقد الغريب عن عمله . اننا نريد قصة طويلة ، ولكن القصة الطويلة لا تعني الطول بسبب وبغير سبب .

لا يغرق غائب بشيء ولا يثقل بشيء ، وانما يلتقط القليل الذي يدل على الكثير ، ويستل الفرد الذي يمثل الجماعة ، وكان رقيبا على قلمه حسيبا . انه يمس الاشياء مسا ، ويفتح الباب لتدخل ، ويومىء لك بالطريق لتتغلغل،انه يقود ولا يسود ، انه صديق ذكي لقارىء ذكي.

وقد تهيا له من الفرص ما جعله قريبا جدا من المفهوم الصحيح للقصة ، فالى ثقافته العربية الوطيدة ، زاد ثقافة غربية ، والى مزاولته الكتابة ادمن على القراءة ، والى كتابة القصة تقبل النقد بصدر رحب ... الى نظر الى هذا الشيء المسمى قصة باكثر من منظار في اكثر من مرة : نظر اليه منسجما واياه وهو يتجول بين الشرق والغرب تطوح به دواعي العيش ومستدعيات الفكر ، وتتجاذبه الفلسفة وتعتوره السياسة . ثم ادام النظر فاذا الذي يتفي على الزمن قليل ، واذا بهذا القليل كثير ذو جوهر خاص ، ولا يحول هذا الجوهر الذي يبدو ضيقا دون ان تكون القصة واسعة : ان السر في نجاح كل عمل أدبي هو الفن . انك تستطيع ان تعرب عن رأيك بالشكل الذي يناسبك ولست مجبرا على ان تكون قصاصا ان لم تكن قصاصا ، ولست ملزما ان تعرب عنه بالقصة ان لم تحتمله القصة . ولطيف جدا ان يكون القاص ذا رسالة داعيا الى التغيير نحو الافضل ، ولكن الالطف ـ والاوجب ـ ان يبقى مع ذلك فنانا .

والقصة ، بعد ذلك وقبله ، ليست رغبة في ان يكون فلان من الناس قصاصا ، وانما هي موهبة او استعداد فطري او اي شيء تقوله من هذا القبيل . ويصحب ذلك ـ كما يصحب الثقافة والمفهوم ـ تأن وتامل ، ودقة الملاحظة وصفاء الذهن ـ وكل ذلك توفر لغائب وعمل على انجاح مشروعه العتيد .

وينتهي الكتاب اذ يقتل حسين محمود ابن الحولة ... وتطبق الغلاف الاخير مرتاحا صافي الذهن ، فلقد سارت الامور سيرا طبيعيا : ان محمود يجب ان يقتل ، وان حسين يجب ان يتغير ، تطبق الكتاب كان الغلاف واقع ضمن مدى الخط القصصي ، ولا تقول : لو ذكر كذا ، ولو فعل كذا ، تطبقه رضي النفس كما تراءى لك المؤلف في هدوئه وصفاء باله .

واذ تودعه مكانه على الرف من مكتبتك تنساب نحوك فكرة من هنا وفكرة من هناك ، وتحس في نفسك بسؤال عن هذا وبتعقيب على ذاك . ألم يقع ما وقع لشخوص القصة بسبب ظروف قاسية هي خارج نطاق طاقتهم ؟ انهم لم يجدوا الحكم الصالح الذي ياخذ بايديهم ويستثمر كنوز مواهبهم الفطرية في مجالي الخير العام . ان «حسين» الذي يقتل لاول مرة قد يصبح قتالا ممتهنا ، وقد يقتل نشمية وتماضر وربما سليمة وربما .. واذا كان قد بدأ القتل لسبب سوغه وارتضاه فقد ينتهي ـ كما انتهى عدوه من قبله ـ بان يقتل للتلذذ بالقتل ومن اجل كسب الهابة في مجتمع ضائع . اما تماضر فستنتقل من حضن الى حضن ، فلقد تقررت حياتها على ذلك النهج بسبب من سوء الرعاية والجهل بالنتائج ، كما انتهت رصيفتها من قبل وربما زادت عليها بما هو اسوأ واسوأ .

آه ! ان المسالة ليست بالبساطة التي ظهرت عليها عند قراءة آخر جملة من الكتاب ، الامر جد ، وفي القصة تعليم خفي «دست» نسبته بقدر وبدهاء !

ان في «النخلة..والجيران» من موحيات الفكر الكثير ، وفيها من أسرار الابداع ما يظل كامنا في نفس القارىء يدعوه الى الاعجاب وتعاوده منه أطياف كلما ابتعد ، ولعله يصطاد من هذه الاطياف ما يدرجه في قائمة للاسرار .

التهاني لغائب .. والبشرى لنا .

ـ اقرأتها ؟

ـ اقرأها مرة ، ومرتين .

أقتنيتها ؟

ـ اقتنيها .

وليس من باب التشجيع أن يقال هذا ، وليس من باب الحماسة ان يقال انها أهل لان تترجم الى اكثر من لغة حية كما تترجم اية قصة لذاتها .

الى مثلها يا غائب ـ والى ما هو احسن منها .

لقد أحييت ـ أستاذ غائب ـ موات أملنا وبعثت راقد طمعنا .

وليكن في هذه التحية اعراب عن النشوة التي اشاعتها فينا قراءة « النخلة .. والجيران » .

جامعة الرياض — علي جواد الطاهر

شاعر عبقر واهازيج الفن

تأليف عبداللطيف يونس – ٢٥٦ صفحة – مطابع مؤسسة الانتاج الطباعي في بيروت

عندما ينبري كاتب مثل عبداللطيف اليونس ليدرس شاعرا مثل شفيق معلوف ، يصير للموضوع قيمة مزدوجة ، ويصبح من العسير – ان لم نقل من المستحيل – الاكتفاء بقراءة الدراسة مرة واحدة ، ذلك لان عوامل الاغراء والاستهواء تتجدد وتتوالد كلما عاد القارئ الى الكتاب.

ولا شك ان شاعر عبقر موضوع ثر لدارسي الشعر لا ينضب له معين ولا ينقطع مدد . بل هو قمة من اعلى القمم واشمخها هامة في تاريخ الشعر العربي قديمه وحديثه ، وهو ذو اثر بين بارز في هذا التطور الذي طرأ على الشعر فحرره من قيوده وحركه من جموده واطلقه يرتاد الافاق ويملأ رئتيه بالهواء النقي والشذا المنعش الندي . ونحن عندما نذكر الشعر انما نعني هذا الشعر الاصيل الذي يعبر عن خلجات النفس ويتغنى بآمالها ويهتف بأحاسيسها ويحمل في ثناياه بذور الحياة والخلود ، هذه النغمة العلوية التي تهتز لها الجوارح وتصفق القلوب وتخشع الخواطر ، لا هذا الهذيان التافه الذي لا ينطوي على فكرة ولا يدل على معنى ولا يرتكز على بيان ولا يجري على اسلوب من اساليب العربية ، هذا الهواء الاصفر والبلاء الاكبر الذي أفسد الاذواق ولوث الاخلاق وبلبل الالسنة وانتشر في مواطن العربية باسم الشعر الجديد .

صحيح ان ادباء المهجر كانوا اول من دعوا الى التجديد واعادة النظر في مفاهيم الشعر ومقاييسه ، والتمرد على تقاليد الادب المحنط ، ولكن ثورتهم كانت للبناء ، لمجد الادب والفن والبيان واللغة ، كانت ثورة واعية هادية هادفة ، واذا شئت فقل ثورة الحياة على الموت . لقد حملوا المعول بيد ، ومعدات البناء باليد الثانية ، فكان هذا الصرح الفكري الباذخ يتحدى الزعازع والاجيال ، وترتد عنه الابصار حسرى كليلة . اما هؤلاء الذين يتخطرون كالطواويس على واجهات بعض الصحف ويفرقون الاسواق ببضائعهم الرخيصة ، ويتصدون بالشتم والسباب لعمالقة الفكر والادب ، فانهم بهاليل يدورون في حلقة مفرغة لا تحرض لهم الا التهريج ولا اداة الا الشعوذة ولا زاد الا ما يلتقطونه من نفايات موائد الادب .

واقد كان شفيق معلوف من اعمدة الهيكل ، وضع طاقته الشعرية في خدمة الثورة المهجرية . « يمتاز – على حد تعبير عبد اللطيف اليونس – بالديباجية العربية المصقولة ، والنغم الهادئ الرصين ، والجرس القوي الصافي والكلمة الانيقة المنتقاة ، والخيال الرائع الاليف ، والصورة القريبة من الواقع ، بل التي تعيش في صميم الواقع ... »

ويجد القارئ مصداق هذه الشهادة في هذه الثروة الضخمة من الشعر يموج بالالق والعبق الذي نشره شفيق في كل صقع عربي ، وهي ثروة تحدث عن دوره الكبير في معركة الادب المهجري واثره البالغ في تكوين معالمها وترسيخ دعائمها وتعميم فتوحاتها .

من اجل ذلك كان لا بد للاطاحة بهذه الشاعرية الفذة من قلم فذ تتوفر فيه غزارة الاطلاع وسلامة الذوق وحلاوة الكلمة ودقة الملاحظة وصفاء التفكير وعذوبة التعبير . وقد اجتمعت هذه المقومات والخصائص في عبد اللطيف اليونس ، فجاءت دراسته لشاعر عبقر حالية بالطرائف ، غنية بالمكتشفات زاخرة بالمتع والمغريات ، بعيدة عن مهاوي التكلف والتزلف والتعنت والغرور والحذلقة . وما احلى التواضع حلية للمردة ، وما اقبح العنجهية لباسا للقردة !

لقد نظر الناقد الى آثار الشاعر نظرة الفاحص المحقق ، لم يمل مع الهوى ولم يتأثر بعامل الصداقة ، وهي اولى حسنات الكتاب . بل لعل اغراقه في التجرد من كل تأثير عاطفي اوقعه في ما يشبه القسوة على بعض مواقف الشاعر . ولا ضير عليه ، فخير للناقد ان يرمى بالجور والخشونة من ان يؤخذ بتهمة التدجيل والمحاباة ومراعاة الخواطر .

مهمة النقد تقييم الاثر الادبي بدون تحيز ولا تحامل ، اي تسليط الاضواء على محاسنه ومساوئه ، وتحليل مواضع القوة والضعف فيه. ويغلط من يحسب النقد وسيلة لتقارض المديح وتبادل الثناء ، او اداة لنهش الاعراض ونشر الامراض . وعبداللطيف اليونس ترفع بقلمه عن هذا المهوى وذاك ، فارضى ضميره وارضى قارئه ، وكان – كما قال – مخلصا لواجبه كل الاخلاص .

ولا يعني هذا اننا نوافق الناقد على كل ما جاء به من آراء ، ولكن لا مناص من الاعتراف بأن هذه الدراسة مجهود فكري ضخم ينساب في لغة عذبة سائغة ويترقرق في اسلوب انيق رشيق يكاد يكون فريدا في ادب النقد .

وما دمنا قد المحنا الى بعض مفترقات الطريق – وهي جد قليلة – فمن مقتضيات الامانة ان نصرح ان كثرة الاستطرادات قد تدل على سعة الثقافة وخصب الذاكرة ولكنها – اذا اسرفت – تفسد وحدة الموضوع وتعرج الطريق وتبلبل ذهن القارئ وتوزع فكره وترهقه بمطاردة الخواطر والقفز الدائم من معنى الى معنى .

ومن الآراء التي نختلف فيها مع الناقد اعتقاده ان شعر شفيق خلو من اوجاع النفس لانه لم يذق الم الحرمان ولم يكتو بنار الحاجة. وفي رأينا ان لشفيق شعرا يمور بالدمع ويهدر باللوعة ، فالمال والجاه والطيبات ، تفاهات قرابية لا تروي ظمأ الشاعر ولا تشبع نهمه الروحي ولا تصرفه عما يعتلج في نفسه من احلام واوهام ... والا فماذا نسمي شعر شفيق في الحنين ، وقد افرد له الناقد فصلا كاملا في الكتاب؟. واذا كانت دعة العيش ونعمة الغنى وذيوع الصيت تغني الشعر بالصور الزاهية المترفة ، فلماذا غلب على شعر فوزي معلوف – شقيق شفيق – طابع التأمل والحيرة والكآبة وغرق بالشكوى والدمع والانين؟. واذا قلبنا الصفحة نرى كثيرين من الذين عضتهم الفاقة وطاردهم البؤس وتناهشهم الحرمان يبشون للحياة ويهشون للمكاره ويأتون بالمعجزات في معاني الفرح والغبطة والطمأنينة . واقرب هؤلاء الشعراء الى الذهن ايليا ابو ماضي . لقد عاش ابو ماضي كادحا مكدودا محروما ومات كادحا مكدودا محروما ، لم يخلف حطاما ولم يسلف يدا ، ومع ذلك فقد ماج شعره بالالق والابتسام ، وشاعت فيه معاني الرضى والطمأنينة وتغنى بأعذب اناشيد الامل والرجاء ... فكيف نعلل هذه الظاهرة ؟.

في اعتقادي ان ظروف المعيشة لا تقدم ولا تؤخر في طبائع الناس، واذا اثرت فهي لا تتعدى القشرة الخارجية ، وتبقى النفوس على فطرتها.

ومن البدع التي تسيء الى الشعر ، وقد شاعت في اقلام الكثيرين من النقاد ، ترجمة الشعر الى نثر . فالشعر موسيقى ومعنى. وهذه البدعة تهيض احد جناحيه فتفقده نصف قيمته ، بل ربما هبطت به الى مستوى الكلام العادي المألوف ... مثال ذلك ان الناقد يورد هذين البيتين :

اي صوت ادعى غداة التنادي من نداء الاكباد للاكباد
صدقت ذمة الزمان فعدنا ننفض الجمر من خلال الرماد

ثم يقول : اجل صدقت ذمة الزمان واستجابت الاكباد للاكباد – وهل احلى من ندائها وارق – فنفض جمرة العاطفة من رماد الغربة ، وكانت العودة ...

فهل رأيت كيف يخبو الالق ويبهت اللون وينكمش العبير ويذوي النغم وتتقلص الخلابة وتنفرج الهوة بين المعنى في ثوبيه الشعري والنثري ؟ .

... اما بعد فانه مهما اختلفت مذاهب الرأي تظل هذه الدراسة

عملا ادبيا جليلا تشهد بما يمتاز به عبداللطيف اليونس من اخلاص لرسالة القلم وما يزدان به من مواهب فكرية وبيانية ، وما يتمتع به من ثروة ثقافية ونفسية ، وتبقى مرجعا غني المادة لدارسي شفيق معلوف وعشاق شعره ، يرتعون في احضانها وينهلون من غدرانها ، ويجنون من افنانها غذاء شهيا للعقول والقلوب والاذهان .

زكي قنصل
بوانس ايريس – الارجنتين

•

الاسلام والمسلمون في المانيا ، بين الامس واليوم

تاليف الشيخ طه الولي – ٢٠٨ صفحة – حجم كبير – منشورات دار الفتح للطباعة والنشر ببيروت – مطابع دار لبنان ببيروت .

الشيخ طه الولي من اعلام مدينة بيروت وعلمائها .وهو احد القلائل الذين يجمعون بين الثقافتين الدينية والمدنية ، اذ هو حائز على اجازة في الدراسات الاسلامية من كلية اصول الدين بالازهر الشريف في مصر ، وعلى ليسانس في القانون من معهد الحقوق بجامعة القديس يوسف اليسوعية في بيروت وقد منحته جامعة فينا مؤخرا ، ديبلوم علم المكتبات ، ثم انه امين سر جمعية المكتبات اللبنانية التابعة لمنظمة «فياب» التي تنتظم جميع المكتبات العامة في العالم .

ان الشيخ طه الولي لا يقصر ابحاثه وتحقيقاته على اللون الديني الاسلامي وحسب بل هو كثيرا ما يعالج بكتاباته الموضوعات التاريخية ، لا سيما ما يتصل منها بالمسلمين والعرب.وهو اليوم بسبيل اعداد موسوعة ضخمة عن تاريخ مدينة بيروت – عاصمة الجمهورية اللبنانية – تنطوي على كل ما يتصل بهذه المدينة العريقة منذ تاسيسها لاول مرة حتى ايامنا الحاضرة . وتدل المقالات التي نشرت من هذه الموسوعة ان الشيخ الولي يبذل مجهودا كبيرا في اعداد هذا التاريخ لكي يكون كتابه مصدرا اساسيا يعتمده كل من يرغب في الاطلاع على المراحل التي مرت بها هذه المدينة قديما وحديثا في مختلف اطوارها وظروفها من عمرانية او انسانية .

ولعلنا بغنى عن الاشارة ، الى المكانة العلمية المرموقة التي يتمتع بها الشيخ طه الولي في العالم العربي فضلا عن لبنان وها نحن اولا في كلمتنا التالية نقدمه في اطار جذاب من الدراسات الاسلامية المتعة التي سجلها في كتابه تحت عنوان : « الاسلام والمسلمون في المانيا ، بين الامس واليوم » ، ونحن على يقين من ان القراء سيجدون فيه العالم المحقق الذي تقرأ بحوثه الاسلامية والتاريخية بكثير من الشوق والعناية والاطمئنان ، نظرا لما يمتاز به من مبالغة في الحرص على قيمة كل كلمة يخطها بيمينه .

وهو يقع في مائتين وثمان صفحات من الحجم الكبير ، موزعة على خمسة ابواب ، وفي كل باب عدة فصول . وهو كما يدل عليه التعريف الذي اتبع بعنوانه «عرض سريع لتطور الاستشراق في المانيا مع صورة عامة للنشاط الاسلامي الراهن فيها » .

وتدل المقدمة على ان المؤلف الشيخ طه الولي ، وضع كتابه على اثر زيارة قام بها الى المانيا الغربية بدعوة من منظمة التبادل الجامعي ، في بون ، اتاحت له فرصة الاتصال الشخصي والمباشر بعدد كبير من العاملين في حقل الاستشراق الاسلامي من العلماء الالمان ، والتعرف الى مختلف الهيئات والمؤسسات الثقافية التي اخذت نفسها بالتوفر على الدراسات والابحاث الشرقية ، في تلك البلاد التي استطاعت ان تخرج بالعلوم العربية والاسلامية من ظلمة العواطف الدينية



المتعصبة ، الى نور التحقيقات الموضوعية المتفتحة ، بما هيء للباحثين فيها ظروفا ملائمة لرعاية اتجاه متميز للاقتراب من حقيقة الاسلام مما يمكن معه ، ان يصدق عليه وصف الروح الاكاديمية الصحيحة .

وتجدر الملاحظة ان الشيخ طه الولي حاول في الواقع ان يجعل من كتابه ، احد المصادر الحديثة في تتبع الجهود التي بذلها المستشرقون الالمان في السابق ، وما يزال خلفاؤهم المعاصرون على سنتهم ، في محاولة الاحاطة بموضوع القرآن الكريم وفهم نصوصه اللغوية واغراضه التشريعية ، والتعليق على ما اثاره هذا الكتاب الديني العريق في اوساط المؤمنين به ، من علوم وآداب وفنون ومذاهب عقائدية واتجاهات سياسية وفكرية .

وقد كان حديث المؤلف عن موقف الكنيسة ــ قديما ــ من القرآن الكريم ، سببا لان يتضمن كتابه فصلا خاصا عن تاريخ هذا الكتاب المقدس في البلاد الاوروبية من ترجمة وطباعة ونشر ، بحيث يمكن القول ، بان هذا الفصل بذاته ، يعتبر الاحصاء الاول من نوعه في اللغة العربية ، ذلك بانه يعطي القارىء فكرة علمية دقيقة عن دخول القرآن الكريم الى المؤسسات الدينية والعلمية في الدوائر الاجنبية عن طريق ترجمته الى العديد من لغات الغرب والشرق ، ابتداء من القرن الحادي عشر للميلاد حتى ايامنا الحاضرة في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين . وقد احسن المؤلف صنعا بما عرض خلال هذا الفصل المهم من العكوس الشمسية التي تصور بعض النصوص الاصلية للترجمات التي اوردها في اللغات التي اشار اليها ، الامر الذي يعطي القارىء بعض النماذج الواقعية لهذه الترجمات .

وقد اراد الشيخ طه ان لا يمر في موضوع الترجمات الاجنبية للقرآن الكريم ، دون ان يبدي شكه في قدرة المترجمين على بلوغ ما تطالوا اليه من رغبة في الدقة واصابة الهدف فقال : « ولسنا هنا في مجال تحليل هذه الترجمات ومناقشتها في قربها او بعدها عن الفرض الذي تسامت اليه ! وانما نحن نريد اعطاء القارىء صورة تاريخية عن هذا الموضوع الخطير والاشخاص الذين ندبوا نفسهم به . وليس من شك في ان الترجمة الحرفية للقرآن الكريم ستبقى الضالة المنشودة ، كما انها ستبقى لذلك الغاية التي لن تدرك لان ترجمة الوحي الالهي الذي نزل به الروح الامين على قلب سيد المرسلين ، ليست بالامر الهين . وفي ذلك يقول المستشرق الالماني «فيشر» :

«ما يداخل الذين تعمقوا باسرار العربية شك ، في انه لا توجد بين ترجمات القرآن ، سواء أكانت كاملة ام قاصرة على بعض آيات منه ، ترجمة تفي بالمطالب اللغوية الدقيقة !.. » .

واذا تجاوزنا الاحصاءات التاريخية الدقيقة التي وضعها الشيخ الولي عن اللغات التي نقل اليها القرآن الكريم مع ذكر عدد المرات التي ترجم اليها في كل لغة ، اذا تجاوزنا ذلك ، فاننا نجد انفسنا حيال بحوث ممتعة ، تتناول عناية المستشرقين الالمان بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسنته الشريفة ، كما تتناول كذلك ، الفرق الاسلامية ، في الاستشراق الالماني الى ان ينتهي به الى الكلام الى المراحل المتعددة التي مرت بها الدراسات الاسلامية في المانيا منذ انشاء الكرسي الخاص بالدراسات الشرقية في مدينة هايدلبرغ الذي دشنه الامير « يوهان فاسيمير» ، احد النبلاء الالمان سنة ١٦٠٩ م ، مرورا بمعهد الدراسات الشرقية الذي اسسه بسمارك في برلين ، في اواخر القرن التاسع عشر للميلاد ، الى هذه الايام التي اصبحت فيها «بون» العاصمة المؤقتة لالمانيا الاتحادية مقرا لهذه الدراسات تحت اشراف المستشرق المعاصر ، البروفسور «اوتوشبيس» وقد احسن المؤلف صنعا بما تضمنه كتابه القيم من صور تمثل اشخاص المستشرقين الذين ورد ذكرهم في غضون الكلام .

وانه لما يزيد في رونق الكتاب وقيمته العلمية ، ان المؤلف ، حرص على ان يحيط بموضوعه من كافة اطرافه ، فافرد في هذا الكتاب عدة فصول تتضمن عرضا احصائيا للمطبوعات الدورية التي تعنى بالدراسات الاسلامية ، مما يصدره الالمان انفسهم او يصدر عن غيرهم باللغة الالمانية في داخل المانيا او خارجها ، وانه ليصح القول بان هذه المطبوعات في الواقع ، المرآة التي تعكس بوضوح ، الجهود العادلة التي تجعل من اللغة الالمانية احد المفاتيح الرئيسية لدراسة الاسلام والمسلمين ، ليس في اوروبا وحسب ، بل في سائر انحاء العالم ، بما في ذلك الاقطار الاسلامية نفسها !.. .

واستكمالا لموضوع الكتاب ، نجد الشيخ طه الولي ، يقدم للقارىء العربي ، دليلا مصورا عن المساجد والجوامع التي توجد حاليا في الحواضر الالمانية (الغربية) الرئيسية ، وهي المساجد والجوامع التي بنيت في تلك البلاد في ازمنة مختلفة ، من قبل مؤسسات اسلامية عديدة ، بعضها ينتمي الى اهل السنة والجماعة وبعضها الى مذهب الشيعة الامامية وبعضها الاخر الى المذهب القادياني بفريقيه « لاهور والربوة» . وعبر الفصل الخاص بتعداد هذه المساجد والجوامع نجد صاحب الكتاب ينتهز الفرصة ليعطي القارىء بعض الايضاحات التي لا بد منها عن حياة المسلمين الذين يقيمون اليوم في المانيا والظروف العامة التي تحيط بهم في نشاطهم وعباداتهم مشيدا بالروح الايجابية الكريمة التي يلقونها لدى الاوساط الالمانية ، من رسمية واهلية ، هذه الروح التي كان لها الفضل في «عودة صوت المؤذن ليطرق من جديد ، اسماع الاوروبيين من فوق المآذن التي شقت سبيلها الى ساحات المدن»

وفي ختام الكتاب ، فصل خاص بتاريخ العلاقات الديبلوماسية ، التي قامت ، على نحو او على آخر ، بين المسلمين والالمان عبر اللقاء المثير الذي تم بين الراهب «جان» سفير اوتون الكبير امبراطور المانيا في القرن العاشر للميلاد وبين الخليفة الاندلسي عبدالرحمن الناصر ، ولم ينس المؤلف ان ينتهز هذه المناسبة لينفي جدية القصة التي ترويها المصادر الاجنبية الحديثة ، عن تبادل الهدايا بين الخليفة العباسي هارون الرشيد وبين مؤسس الامبراطورية الجرمانية المقدسة شارلمان لاسباب بينها في كتابه . ثم ينتهي الشيخ طه الولي من كتابه ، بفصل اخر جعل عنوانه «المانيا وقضية الاسلام الاولى فلسطين» قال فيه :

« وايا ما كانت المبررات التي تتذرع بها بعض الجهات في المانيا اليوم للتخفيف من اثر استجابتها للسياسة المفرضة بقبول العدوان المفروض على حق العرب بفلسطين كأمر واقع ، فان المسلمين في كل قطر من اقطارهم ، لا فارق بين حاكم ولا محكوم ، ليسوا على استعداد للاقتناع بجدية هذه المبررات ، والتسامح باستمرار استجابة الالمان لما فرض عليهم ، على حساب العدالة الانسانية ، التي لقيت مصرعها الفظيع على يد الشهوات الاستعمارية القاسية في فلسطين وقبولها كأمر واقع ... »

اما بعد ، ان كتاب «الاسلام والمسلمون في المانيا بين الامس واليوم » يعتبر في الواقع ، محاولة جدية ، لتقديم دراسة علمية رصينة ، مدعومة بالمراجع الموثوقة ، الى المكتبة الاسلامية ، حتى يتاح للقارىء العربي الوقوف على ما يبتغيه من الابحاث التي تلقي ضوءا على تاريخ الاستشراق الالماني فيما يتصل بالقرآن الكريم وما انبثق عنه في مختلف العصور من العلوم والفنون في الشرق او في الغرب وما اثاره من فصول في الدوائر الاوروبية بصورة خاصة ، كانت تتراوح بين سلبية التعصب حينا وايجابية التفهم حينا اخر تبعا للمناخ الفكري الذي كانت تعيشه هذه الدوائر .

ولعلنا لا نجور بالقول ولا نجنح الى المبالغة ، اذا اكدنا ، في هذه العجالة العابرة عن الكتاب الذي بين ايدينا ، بان الدقة العلمية التي امتاز بها الشيخ طه الولي في معالجته المركزة لموضوعه الهام جديرة بان تلفت اليه الانظار كواحد من ابرز علماء الاسلاميات في لبنان.

فؤاد طبارة

دار صــادر

عنوانها : صندوق البريد رقم ١٠ ـ بيروت (تلفون ٢٢٠٤٨٠)

مركزها : ٣٦ شارع مـار منصور ـ بناية محمد خاتون الطابق الثاني ـ جنوبي البناية المركزية

تقدم الى القارىء الكريم مؤلفات الاديب الكبير

الاستـاذ مخائيل نعيمة في طبعاتهـا الجديدة

		سعر
١	ـ كان ما كان	٢٠٠
٢	ـ اكابر	٢٠٠
٣	ـ همس الجفون	٣٠٠
٤	ـ مذكرات الارقش	٢٥٠
٥	ـ الاباء والبنون	٢٥٠
٦	ـ في مهب الريح	٣٠٠
٧	ـ الاوثان	١٢٥
٨	ـ النور والديجور	٣٠٠
٩	ـ أبعد من موسكو	٣٠٠
١٠	ـ البيـادر	٣٥٠
١١	ـ لقـاء	٢٥٠
١٢	ـ ﺮداد	٦٠٠
١٣	ـ ابو بطة	٣٠٠
١٤	ـ سبعون : المرحلة الاولى	٥٠٠
١٥	ـ سبعون : المرحلة الثانية	٥٠٠
١٦	ـ سبعون : المرحلة الثالثة	٥٠٠
١٧	ـ جبران خليل جبران	٥٠٠
١٨	ـ الغربال	٣٥٠
١٩	ـ دروب	٣٠٠
٢٠	ـ المراحل	٢٠٠
٢١	ـ زاد المعاد	٢٥٠
٢٢	ـ صوت العالم	٣٠٠
٢٣	ـ كرم على درب	٢٠٠
٢٤	ـ اليوم الاخير	٤٠٠
٢٥	ـ هوامش	٤٠٠

مكتبة المثنى

تقدم : كتـاب النقائض

(نقائض جرير والفرزدق)

في ثلاثة مجلدات بالقماش

يطلب الكتـاب من مكتبة المثنى ببغداد

ومن دار صادر ببيروت

ومن جميع المكتبات العربية

صدر حديثا

١ ـ أضواء على مسلك التوحيد «الدرزية» بقلم الدكتور سامي نسيب مكارم مع مقدمـة بقلم معالي الاستـاذ كمـال بك جنبلاط

٢ ـ تاريخ الفلسفة العربيـة الاسلامية بقلـم الاستاذ عبده شمالي

٣ ـ ديوان لبيد بن ربيعة العامري

٤ ـ ديوان الاعشى

٥ ـ ديوان الفرزدق جزآن

٦ ـ حكايات لبنانية للاستاذ كرم البستاني

٧ ـ البيان للاستاذ كرم البستاني

الناشر : دار صادر للطباعة والنشر



طـه حسين والمستشرقـون الايطاليـون

يتمتع طـه حسين بمنزلة خاصة يندر ان يتمتع بمثلها انسان لـدى المستشرقين الايطاليين بشكل خاص ، ولدى سائر المستشرقين الغربيين بشكل عام . وقد يكون لمنزلته لدى المستشرقين الايطاليين صلة بتلمذته لعدد من كبارهم الراحلين ووفائه لهم ، ولا سيما كارلو ألفونسـو نللينو ، واغناطيوس غويدي ، ودافيد سانتيلانا ، وتلمذة عدد مـن محدثيهم عليه ، ومنهم : ريتسيتانو ، وماريا نللينو ، وكلليياسارينللي. فطـه حسين لا يزال يحمل لاولئك الاساتذة الاكبار والاجلال والتقديـر لفضلهم . ولكن من غير المشكوك فيه أيضا ان لتقدير هؤلاء المستشرقين صلة كبرى كذلك بأدب طـه حسين الشخصي ، وبانتاجه الضخم ، وثقافته الواسعة ، وجهاده الطويل في حقل الفكر العربي المعاصر ، وبما تركه هذا كله من أثر في المحيط الادبي في العالم العربي بأسره ، وليس في مصر وحدها . فادب طـه حسين وثقافته وفضله هي الاركان الثلاثة التي استحق عليها تقدير أهل الاستشراق في ايطاليا خاصة ، وفي الغرب كله بشكل عام ، كما استحق عليها تقدير كل مثقف من ابناء الامة العربية في مشارق الارض ومغاربها .

لقد منحت جامعة باليرمو طـه حسين درجة الدكتوراه الفخريـة تكريما له وتقديرا لفضله . وبمناسبة بلوغه العام الخامس والسبعين من عمره اصدر المستشرقون في ايطاليا كتابا بعنوان « طـه حسين » باللغة الايطالية يحتوي على عدد من الدراسات لنواح متعددة من أدبه، وعدد اخر من الترجمات لاشياء من فصوله الادبية المنشورة في مؤلفاته العديدة . وقد صدر هذا الكتاب عن المعهد الجامعي الشرقي في جامعة نابولي عام ١٩٦٤ . وفي عام ١٩٦٥ صدر في منشورات «معهد الشرق» في روما كتاب اخر انيق ، جميل الاخـراج ، عنوانه «الايام ـ لطـه حسيـن » يحتوي على ترجمة وافية لكتاب «الايام» بجزأيه ، قام بهـا تلميذ طـه حسين وزميله المستشرق اومبرتو ريتسيتانو ، رئيس معهد الدراسات الشرقية في جامعة باليرمو ، في صقلية .

وجدير بالذكر ان ريتسيتانو نفسه قد سبق فكتب في عام ١٩٦١ دراسة واسعة قيمة في مجلة كلية المعلمين في باليرمو ، بعنوان « مع الكاتب المصري طـه حسين ـ من الكتاب الى الازهر الى جامعةالقاهرة العلمانية » ـ وقد قمت أنا في ما بعد بترجمة تلك الدراسة الـى العربية ونشرتها في مجلة «الاديب» في بيروت عام ١٩٦٥ .

ولست أريد ان ابدأ حالا بالحديث عن ترجمة كتاب «الايام» ، بل أترك هذا الى النهاية.وانما أريد ان ابدأ بتقديم صورة سريعة عـن الكتاب التذكاري الذي اشتركت فيه مجموعة كبيرة من اهل الاستشراق في ايطاليا تقدمة منهم الى الرجل العربي العظيم في عيـد ميـلاده الخامس والسبعين . وقد ورد في صفحاته الاولى العبارة التاليـة الدالة على أعمق الحب ، والتقدير ، والاجلال « تقدمة من المستعربين الايطاليين الى طـه حسين بمناسبة عيد ميلاده الخامس والسبعين ».

وفي صدر هذا الكتاب التذكاري النفيس تحية من المستعـرب الكبير الاستاذ غبرييلي ، رئيس معهد اللغات الشرقية في جامعة روما، يقـول فيهـا :

« ايها المعلم والصديق العزيز ،

في الكتاب الذي أهدي اليك بمناسبة اعوامك السبعين كانـت تنقص مشاركة المستعربين الايطاليين : مـن ايطاليا عينها التي كانت دائما عزيزة عليك ، كما نعتقد ، منذ ايام المعلمين المستشرقيـن الاوائل الذين فتحوا لروحك الشابة آفاقـا جديدة ، والتي يعيش فيها اليوم العديد من اصدقائك والمعجبين بك ، ومنها قدمت اليك صنوف من التكريم الجامعي . هؤلاء الاصدقاء الايطاليون شاؤوا اليوم ان يعوضوا عن غيابهم غير المقصود قبل اعوام، فأهدوا اليك بمناسبة اتمامك العام الخامس والسبعين هذا الكتـاب الجديد ، وفيه نوقشت اعمالك الادبية ودرست بملء الحرية النقدية ، مع وعينا التام أننا فـي حضـرة واحد من اعظم الشخصيات الادبية المعاصـرة » .

ثم يختم الاستاذ فرانشيسكو غبرييلي كلمته ، او تحيته اللطيفة بقولـه :

« فتقبل هذه التقدمة التي تجيئك من وطن اغناطيوس غويدي ، وكارلو نللينو ، ودافيد سانتيلانا . فكأنما يشترك معنا اولئك المعلمون القدماء ، الماثلون ابدا في روحك العظيمة العرفان ، في التعبير عـن أرفع مشاعـر التقدير واحرهـا ، وفي تقديم ما تستحقه من التكريم والتعظيـم » .

بعد هذه المقدمة القصيرة الحارة تتعاقب أقلام المستشرقيـن الايطاليين في صفحات الكتاب ـ وعددها ٣١٠ من القطع الكبير ـ .

وليس في وسعنا في هذه العجالة الخاطفة اكثر من ان نقدم قائمة بأسماء الكتاب وعناوين موضوعاتهم بشكل مجمل ، وهي كما يلي :

لقد اشترك الاساتذة التالية اسماؤهم في كتابة الابحاث النقدية وهـم :

« اومبرتو ريتسيتانو ـ جورجيو ليفي ديلا فيدا ـ فرانشيسكـو غبرييلي ـ ماريا نللينو ـ مارتينو ماريو مورينو ـ باولو منفنتي » .

وكانت عناوين مواضيعهم ، حسب ترتيب اسمائهم ، كما يلي :

« نبذة عن سيرة طه حسين واعماله الادبية ـ مؤلفات طه حسين التاريخية ـ طه حسين الناقد ـ طـه حسين القاص ـ طـه حسيـن وايطاليا ـ طـه حسين والاسلام ـ طـه حسين والتعليم في الازهر ». ونحب ان نشير الى ان ريتسيتانو قد كتب اثنين من هذه البحوث هما: الاول والرابـع .

وبعد هذه الابحاث النقدية والدراسات النفيسة لادب طه حسين، يجيء عرض لثلاثة من مؤلفاته ، هي «اديب ـ القصر المسحور ـ شجرة البؤس» . وقد عرضت الكتاب الاول السيدة كليليا سارنيللي واشترك في عرض الثاني الاستاذة لاورا فاليري والاستاذ روبرتو روبيناتشي ، وكتب العرض الثالث الاستاذ جوزيبي بيلفيوري مساعـد ريتسيتانـو فـي باليرمـو .

وتجيء بعد ذلك قائمة الترجمات من فصول مؤلفات طـه حسين التاليـة :

« حديث الاربعاء ـ الايام ـ مرآة الضمير الحديث ـ من لغـو الصيف ـ بين بين ـ رحلة الربيع والصيف ـ نقد واصلاح ـ الفتنـة الكبرى ـ الشيخان » . وقد اشترك في هذه الترجمات المستشرقون التاليـة اسماؤهم :

« فرانشيسكو غبرييلي ـ أومبرتو ريتسيتانو ـ ريتا روزه دي ميليو ـ ماريا تريزا بيتي سوما ـ فانا كريمونيزي ـ جينو بلدوتشي ـ بينيتو فولبي ـ نيلا جاناكونه ـ جوفاني أومان » .

هؤلاء المستشرقون يعملون في أربع جامعات في ايطاليا ، هـي جامعات : « روما ـ نابولي ـ باليرمو ـ والبندقية » وهذه هـي الجامعات الوحيدة في ايطاليا التي فيها أقسام للغة العربية وآدابها ، والدراسات الشرقية . وأستثني من هؤلاء ثلاثة ، هم :

جورجيو ديلا فيدا ، الذي أحيل على المعاش منذ سنين لبلوغه سن الشيخوخة – والمرحوم مارتينو مورينو ، الذي توفي في منتصف عام ١٩٦٥ والسيدة لاورا فاليري ، التي احيلت كذلك على المعاش عام ١٩٦٥ ، ولكنها ما تزال ملازمة المعهد الذي كانت رئيسته عدة سنين في جامعة نابولي حتى أصبحت جزءا من تاريخه المجيد ، كما اصبح هو جزءا عزيزا من حياتها .

وانه لمن حق هؤلاء المستشرقين علينا ان نبعث اليهم ببعض التحية التي قدموها لاديبنا العظيم طه حسين ، فقد سبقونا الى تكريم الرجل الذي كنا احق بالسبق الى تكريمه ، وكان تكريمهم له يليق بالروح الجامعية العالية التي يحبها طه حسين ، وبالادب العالي الذي يتربع منه في اسمى منزلة واجدرها بالتكريم .

ومن حق أصحاب هذه الفصول ، او الهدايا الادبية الجميلة ، التي يشتمل عليها كتاب هؤلاء المستشرقين ، ان نعرف بهم ولو تعريفا عابرا . فاذا كانوا يهتمون بادبنا كل هذا الاهتمام الذي يجعلهم يسبقوننا الى تكريم العظماء من أدبائنا ، فمن حقهم علينا ان نعرف عنهم ما يسمح لنا برد التحية لهم ، لعل تحيتنا هذه تكون مشاركة منا في تكريم الرجل العظيم الذي هز يوما ادبنا العربي من رقدته وخموله قبل ما يزيد على نصف قرن ، وساهم في فتح عيونه على النور ، وسار أمامه حاملا المشعل ، ومتحملا الاذى ، وصابرا على النكران في سبيل تادية الرسالة لنهضة الفكر العربي الحديث . اما تعريفي لهؤلاء المستشرقين فسيكون خاطفا بالقدر الذي يمكن ان يسمح به المجال :

١ – فرانشيسكو غبرييلي :

رئيس معهد الدراسات الشرقية في جامعة روما ، وابن المستشرق الشهير جوزيبي غبرييلي المتوفي عام ١٩٤٢ . وهو من اكبر المستشرقين الاحياء ، وله مؤلفات ودراسات عديدة في الادب العربي القديم والحديث ، وكتاب في تاريخ الادب العربي ، ودراسات عن : شوقي ، ومي زيادة ، وطه حسين ، ومحمود تيمور ، وغيرهم من الادباء العرب المعاصرين .

٢ – أومبرتو ريتسيتانو :

رئيس معهد الدراسات الشرقية في جامعة باليرمو . ولد في الاسكندرية في مصر ، ودرس في مدارسها ، ثم في جامعة روما . وبعد ذلك عاد فدرس في جامعة القاهرة ، ثم عمل مدرسا فيها ، ثم في جامعة عين شمس. ترجم الى الايطالية « الايام » لطه حسين و «زينب» لهيكل ، و «اهل الكهف» لتوفيق الحكيم . واغلب اهتمامه منصرف الى تاريخ العرب وآدابهم في جزيرة صقلية . عرفناه في الاردن حين دعي لالقاء عدة محاضرات في تاريخ العرب في صقلية في الجامعة الاردنية في شهر نوفمبر ١٩٦٥ ، كما القى في تونس ، والمغرب ، ودمشق ، وليبيا ، محاضرات عديدة في الموضوع عينه باللغة العربية التي يجيدها كثيرا .

٣ – جورجيو ديلا فيدا :

عميد المستشرقين الايطاليين ، وكان رئيسا لقسم الدراسات الشرقية في جامعة روما الى ان احيل على التقاعد منذ عدة سنين ، وهو استاذ الاجيال الحاضرة من المستشرقين الايطاليين الاحياء . والاستاذ ديلا فيدا من أوسع المستشرقين اطلاعا على شؤون الشرق والاسلام عامة ، وله في الاسلام مؤلفات عديدة .

٤ – الانسة ماريا نللينو :

ابنة المستشرق المرحوم كارلو الفونسو نللينو ، والمديرة العلمية «لمعهد الشرق» في روما ، ورئيسة معهد الدراسات الشرقية في جامعة البندقية . ولو لم يكن لها من أثر ادبي غير اهتمامها بجمع سائر أبحاث والدها ومؤلفاته ، والاشراف على نشرها كاملة في خمسة اجزاء ضخمة ، لكان هذا حسبها من انتاج العمر . ومع ذلك فان لها ابحاثا عديدة في صحف الاستشراق الايطالية ، وكتابا في مجلدين عن «النابغة الجعدي وشعره» وعرضا لكتاب «الاستفسار» للطوسي . وكانت تحرر مجلة «الشرق الحديث» الايطالية التي يصدرها «معهد الشرق» عدة سنوات .

٥ – مارتينو ماريو مورينو :

كان من اكبر المستشرقين المعاصرين . وقد عمل في الصومال ، واليمن ، ولبنان ، ومصر ، والسودان ، وعدد من الاقطار الافريقية . والف ثمانية كتب عن العرب والاسلام ، وعدة كتب عن الحبشية والصومالية ، وعن بلاد الحبشة والصومال . ومن مؤلفاته كتاب بالعربية عنوانه : «المسلمون في صقلية» . كان في الاعوام الاخيرة من عمره يحرر مجلة « المشرق – ليفانتي » بالعربية والايطالية ، في روما ، وقد نشر فيها فصولا رائعة عن عدد من كبار الشعراء العرب المعاصرين – المهجريين بشكل خاص – مع ترجمات لنماذج عديدة من أشعارهم ، كما كان يهتم كثيرا بنقد الكتب العربية الحديثة والتعريف بها ، بالايطالية ، على صفحات المجلة ، حتى انتقل الى الرفيق الاعلى في ١٣ حزيران ١٩٦٥ .

٦ – باولو منفنتي :

مساعد غبرييلي في جامعة روما ، ورئيس تحرير مجلة « الشرق الحديث» في معهد الشرق في روما ، ومساعد المديرة العلمية للمعهد المذكور . يهتم كثيرا بالشعر العربي الحديث ، وله فيه ابحاث متعددة ، كما ان له كتابا عن «مصر الحديثة» ، ووضع لمؤسسة اليونيسكو كتابا عن الحركة الاستشراقية في ايطاليا ومؤلفات اربابها الادبية والعلمية .

٧ – جوفاني أومان :

مساعد الاستاذ روبيناتشي في المعهد الجامعي الشرقي في جامعة نابولي، يدرس تاريخ الشرق الادنى والاوسط ، ويعمل سكرتيرا للجنة نشر كتاب « نزهة المشتاق – للادريسي» . وله عدة ابحاث نشرت في المجلات الاستشراقية الايطالية . وهو يجيد العربية كاحد ابنائها ، فقد ولد في مصر وعاش فيها نحو عشرين سنة .

٨ – السيدة لاورا فيتشيا فاليري :

تعتبر السيدة فاليري بين اكبر اهل الاستشراق في ايطاليا . وكانت حتى عام ١٩٦٤ – ١٩٦٥ رئيسة قسم الدراسات الشرقية في المعهد الجامعي الشرقي في نابولي ، ثم احيلت على التقاعد بعد خدمة طويلة في حقل تدريس الثقافة الاسلامية وتاريخ الادب العربي . ولها كتاب في قواعد اللغة العربية يقع في جزاين هو المعتمد للتدريس في اقسام الاستشراق في الجامعات الايطالية . ومن مؤلفاتها : « الاسلام تاريخه وثقافته – والجامعات في مصر» وأبحاث عن «الخوارج – وتاريخ الاسلام بعد مقتل عثمان – ونهج البلاغة » وكثير من الابحاث المنشورة في دائرة المعارف الاسلامية ، باللغة الانجليزية . وبمناسبة احالتها على التقاعد صنع لها زملاؤها وتلامذتها المستشرقون الايطاليون مثلما صنعوا لطه حسين ، فاهدوا اليها كتابا يحتوي على ابحاث مختلفة في مواضيع اسلامية وعربية تكريما لها وتحية قلبية نبيلة . وهي رغم احالتها على التقاعد ما تزال تحتفظ بمكان فخري في التدريس في المعهد الشرقي في نابولي .

٩ – روبرتو روبيناتشي :

رئيس قسم اللغة العربية في المعهد الشرقي في جامعة نابولي بعد السيدة لاورا فاليري . كان اصل اختصاصه الاستشراقي في اللغة التركية وآدابها ، ولكن له مشاركة كبيرة في الدراسات العربية .

ومن اعماله القيمة ترجمته لرواية «مجنون ليلى» المسرحية الشعرية ، لاحمد شوقي ، و «اهل الكهف» لتوفيق الحكيم ، و « عبد الستار افندي» لمحمد تيمور . ويهتم اهتماما خاصا بالمسرح المصري .

١٠ ـ السيدة كليليا سارنيللي تشيركوا :

والسيدة كليليا سارنيللي ايضا تجيد العربية كاهلها حديثا وكتابة، فقد ولدت في القاهرة ، وما يزال والدها يعمل جراحا في المستشفى الايطالي هناك ، كما عملت هي ايضا فيها مستشارة ثقافية في السفارة الايطالية . وهي الان تعمل استاذة مساعدة في المعهد الجامعي الشرقي في جامعة نابولي ، وفي جامعة روما . وقد مارست تدريس العربية في معاهد ايطالية في مصر ، وتدريس الايطالية في معاهد عربية هناك أيضا . اما موضوع اختصاصها فهو الآداب والتاريخ والمؤسسات الاسلامية العربية . وتعكف في الاونة الحاضرة على ترجمة بعض الآثار المسرحية الايطالية الى العربية ، يعاونها في ذلك الاستاذ التلباني ، وهو استاذ مصري يساعد في التدريس في المعهد الشرقي في نابولي . وتعمل كذلك في تحقيق بعض الكتب العربية وترجمتها الى الايطالية . وقد صدر لها بالعربية كتاب بعنوان «مجاهد العامري قائد الاسطول العربي غربي البحر المتوسط » وترجمة ايطالية لقصة « هارب من الفردوس » لتوفيق الحكيم .

هذه طائفة جليلة ممن اشتركوا في تحية اديبنا الكبير طه حسين في عيد ميلاده الخامس والسبعين . ويؤسفني ان لا أعرف شيئا عن الباقين ممن اشتركوا في ترجمة فصول من مؤلفاته الى الايطالية في الكتاب التذكاري . الا أنني اذكر الاستاذ جوزيبي بيلفيوري ، مساعد الاستاذ ريتسيتانو في قسم الدراسات الشرقية في جامعة باليرمو ، وهو صديق لي كريم ، عرفته في الزيارتين اللتين قمت بهما لجامعة باليرمو لالقاء بعض المحاضرات فيها عام ١٩٦٢ وعام ١٩٦٦ .

غير ان جهلي بالاخرين لا ينقص من فضلهم ، ولا يحول دون تقديم الشكر لهم والتقدير لمشاركتهم النبيلة في هذا العمل الفكري والانساني الجليـــل .

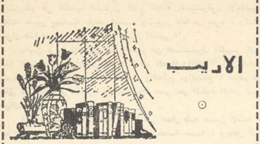
ومما تجدر بي الاشارة اليه بكثير من الاسف هو عدم اهتمام الصحافة العربية وحملة الاقلام العرب بهذا العمل الجليل ، على الرغم من مرور عامين على صدوره .

ونجيء الان الى الترجمة الايطالية لكتاب «الايام» بجزأيه ، التي وضعها الاستاذ أومبرتو ريتسيتانو ، رئيس معهد الدراسات الشرقية في جامعة باليرمو ، في صقلية ، ونشرها «معهد الشرق» في روما عام ١٩٦٥ في كتاب جميل الاخراج انيق ، يقع في ٢٦٦ صفحة من القطع المتوسـط .

هذه الترجمة كان قد بداها ريتسيتانو منذ سنين ، وفي مقاله الضافي عـن طـه حسين « من الكتاب الى الازهر الى الجامعة المصرية» الذي صدر عام ١٩٦١ في مجلة «كلية المعلمين» فـي باليرمو ، أورد صفحات متعددة من هذه الترجمة في سياق الدراسة ، ثم كنماذج مستقلة بعدهـــا .

ونحن نستطيع ان نثق بامانة الترجمة ودقتها لما نعرفه من اجادة المترجم للغة العربية التي وضع بها الكتاب اصلا ، وكذلك لما نعرفه من صلة المترجم الوثيقة بصاحب الكتاب ـ طه حسين ـ وتلمذته عليه ، ثم مزاملته له في التعليم في الجامعة ، ولما يعترف به المترجم نفسه من فضل طـه حسين عليه . والى هذه كلها يرجع الفضل فـي اهتمام ريتسيتانو بترجمة هذا الكتاب الذي يعد بين اروع مؤلفات طـه حسين ، ومن افضل المؤلفات الادبية الحديثة في اللغة العربية .

لقد بدأ المترجم بان مهد لترجمته بمقدمة طويلة بارعة درس فيهـا حياة طـه حسين وثقافته ، واهم مؤلفاته ، وعلى الاخص انتاجـه القصصي والروائي . وهذه المقدمة هي عينها البحث الذي ساهم بـه



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العـادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

•

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي

٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى

في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

•

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

•

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ — المنزل ٢٢٥١٣٩

Tel : Dir : 223819 — Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

•

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

البير اديب

ريتسيتانو في الكتاب التذكاري الذي أهداه المستشرقون الايطاليون لطـه حسين بمناسبة بلوغه خمسة وسبعين عاما من عمره ، وكـان عنوان هذا البحث هناك « طـه حسين القاص » .

وليس غريبا ان ينال طـه حسين من المستشرق الكبير كـل هذا الاهتمام ، وهو الذي يعتبره «معلم الحياة والفكر » ، و «رأس مدرسة» ، ومجددا في حقول العلم ، والتعليم ،والمجتمع ، ساهم في خلق جيل من أهم عناصره ومبادئه قيادة مصر نحو التقدم الباهر فـي حياتهـا الوطنيـة .

ان ريتسيتانو مطلع اطلاعا حسنا على أعمال طـه حسين الادبية ، كما انه يعرف طـه حسين نفسه معرفة شخصية حسنة ، ويحمل لـه في نفسه رصيدا وافرا من التجلة والتقدير والاعجاب . وفي دراسته المطولة هذه نراه يستعرض حياة طـه حسين ، وأعماله الادبية ، وحركة التجديد التي احدثها في الفكر العربي ، والهزات العظيمة التي تركها في حياة المجتمع الادبي الجامد المتحجر في اول ظهوره . وهو يستعرض كل هذا بتفكير العالم ، ومنطق الباحث ، وتقدير الاديب ، ووعـي الانسان المخلص لعصره ، ولحضارته ، ومدنيته وانسانيته .

حملة طـه حسين على جمود التعليم في الازهر وعقمه ، ودراسته للشعر الجاهلي المعروفة ، وجمعه بين الفكر الغربي في أقوى مظاهره وعناصره ، والفكر العربي في أجمل انتاجه وأنصع صحائفه ، كل هذه يستعرضها ريتسيتانو ويحللها ، لكي يفسر عن طريقها المجد العريض الذي توج جبين طـه حسين بجدارة فائقة .

وأما اهتمام ريتسيتانو بكتاب «الايام» بشكل خاص فانه يفسره في هذه المقدمة الطويلة او الدراسة العميقة لاعمال طـه حسين القصصية والروائية فيقـول :

« اذا كانت شهرة طـه حسين ناقدا اديبا قد بدأت تتسع منـذ ظهور كتابه النقدي ـ في عهد الشباب ـ «الشعر الجاهلي» ، ففـي الحقل الروائي يظل كتابه الممتع «الايام» اعظم أعماله ، أو قمتهـا ، فكأنما قدر للفنان ان يجد أمتع لحظاته في البحث في حياته الماضيـة في ظلال الذكريات ، وفي سحر التذكار ، التي تزيد لذتها كلما ازداد الضباب الذي يجللها .

والى نقطة «تذكر الماضي» يعزو ريتسيتانو أهم اعمال طـه حسيـن الادبية الاخرى فيضيف قائلا : «غير ان كل انتاج اديبنا الكبير يرتكز على فرضية التذكار ، ومن الممكن ان تعتبر كذلك كتبه الاخرى : «اديب ـ شجرة البؤس ـ دعاء الكروان ـ والحب الضائع » تنويعات قائمـة علـى هذا الموضوع الثابـت ».

من هنا يبدو لنا سر اهتمام المستشرق الكبير بكتاب صديقه الاديب العربي الكبير «الايام» باعتباره اياه قمة أعماله الروائية القائمة على استرجاع ذكريات الماضي ، والتي ليست قيمتها في انها تسجيل لحياة الرجل وحده ، بمقدار ما هي في تسجيلها لحوادث عصر باكمله في مجالاته الفكرية والانسانية ، في محيط كامل .

وريتسيتانو في تحليله ودراسته دقيق الملاحظة ، نافذ البصيرة : يرى طـه حسين ويعايشه في ادق احاسيسه وتصوراته ، ويتلمـس اتجاهاته الفكرية والفنية بتأمل دقيقة الحس ، فيعرضه لذلك فـي أعماله الروائية عرضا مليئا بالحيوية عامرا بعناصر الجمال والطلاوة . ومن هنا كان لعمله في ترجمة «الايام» قيمته الكبيرة : فقد نقل فكـر طـه حسيـن العربي الى حلـة ايطالية مشرقة ، كلها طلاوة وعذوبة ، مثلما كان في حلته العربية الاصيلة .

عمـان — عيسى الناعوري

•

« الاديب » في ازمة المجلات الادبية

تحتفل الاوساط الادبية في لبنان ، ويشاركها في ذلك جمهور الادبـاء في الاقطار العربية الاخرى ، باليوبيل الفضي لمجلة «الاديب» التي صدر عددها الاول منذ خمسة وعشرين عاما .

ويسر «الثقافة الاسبوعية» ان تنشر المقال الذي كتبه الدكتـور عبدالسلام العجيلي بهذه المناسبة ، ذاكرين ان صفحات الشقيقـة الكبيرة قد حفلت دوما بنتاج الادباء السوريين من شعراء وقصاصيـن وبحاث . واثقين من ان ادباءنا يشاركون كاتب المقال تقديره لشخص الاستاذ البير اديب ولجهوده في ميدان الفكر والادب . متمنين للزميل الكبير ولمجلته حياة مديدة ونجاحا متصلا .

* * *

في آن واحد من الشهر الفائت خصصت مجلتان ادبيتان متباينتان في المنحى والاتجاه عددا من الصفحات في كل منهما للتحدث عن مهمة المجلات الادبية وعن ازمتها ومستقبلها . واحاديث مثل هذه كثيـرة التردد على السنة الكتاب واقلامهم مما يدل على ان شعورا عاما يداخل المثقفين بأن اخطارا تهدد وجود المجلة الادبية او ان شكوكا تنصب على قيمة المجلة الادبية في الحقبة المعاصرة من حقب الحياة الثقافية .

وقد ظل الادب في كل العصور هو مادة القراءة الاولى والمـادة الرئيسية لما ينشر في الكتب ثم في المجلات . وجاء هذا العصر فشهد زيادة كبيرة في عدد القراء جعلت القراءة شاغلا لعامة الناس بعـد ان كانت شغل النخبة ، كما جعلت من النشر حرفة يدخل فيها حساب الربح في صناعة الحرف المكتوب . واذ رافق زيادة عدد القراء انخفاض في المستوى الثقافي للقارىء ، فقد ابتعدت المواضيع التي تهم هذا القارىء عن الجدية او عن المثالية الفنية . وبهذا نشأت صحافة الاثارة، الاثارة بالسبق الاخباري او بنشر الفضائح او بالتحدث عـن الدمـى الجماهيرية من سياسية ورياضية وفنية.وهكذا زحم الادب في ميدانه وتراجع ، في حقل الصحف الدورية ، الى زاوية ادبية في بعـض الجرائد او الى قصة قصيرة في بعض المجلات الاخبارية او المهنية ، او انه اعتصم في مجلات قليلة عدد النسخ هي التي نسميها المجلات الادبية والتي يتحدث المثقفون دوما في مهمتها وازمتها ومستقبلها .

ومن المعروف ان المجلات الادبية الخالصة هي في كثرتها الغالبـة مجلات شهرية او موسمية ، تصدر مرة كل شهر اذا لم يكن كل ثلاثـة شهور او اربعة . وهذا وحده كاف لان يجعل منها عبئا ثقيلا من الناحية المادية على ناشرها . فكل مجلة ادبية تحترم نفسها تستنفد في اعدادها ونشرها نفقات وجهودا لا يخفف منها قلة عدد النسخ المطبوعة . ولكن وارد البيع الذي تعطيه هذه النسخ يظل ضئيلا . ومثله وارد الاعـلان الذي تعتمد عليه كل المنشورات الدورية ، لان الاعلان في مجلة شهرية او موسمية ليس مجزيا من الناحية التجارية في نظر اصحاب السلـع الذين يريدون ترويج بضاعتهم . كل هذا يجعل من المجلة الادبية عملا قليل الفائدة من الناحية المادية ، ويفسر لماذا تنقل الاخبار الادبية بين حين واخر احتجاب مجلات مشهورة وهي في الذروة من النجاح المعنوي وبعد الصيـت .

ولو اننا استعرضنا المجلات الادبية والفكرية التي تستمر فـي صدورها في كل انحاء العالم لتعذر علينا العثور على كثير منها ممن تعتمد بنفسها على نفسها . ومجلاتنا الادبية العربية لا تشذ عن القاعدة في هذا المجال . فثمة مجلات مستمرة في الظهور لانها تصدر عـن دور نشر تتخذها هذه الدور واجهة تنشر فيها لكتابهـا وتعرف فيهـا بمنشوراتها وتروج فيها لبضاعتها رواجا ماديا ومعنويا . وثمة مجلات تعتمد في ظهورها المنتظم على هيئات او منظمات مجردة مـن النفـع التجاري ولكنها ذات طابع ثقافي او سياسي معين ، تقيم اودها وتسد عوزها . كما ان نسبة ليست هينة من هذه المجلات تتمتع بعون الدولة وحمايتها ، مستندة بذلك على عضد قوى من الناحية المادية ولكنهـا خاضعة في نفس الوقت الى اشراف فيه كثير من معاني التقييد وفقد

البادرة في الانطلاق .

وبالرغم من كل هذه الدعامات التي تسند المجلة الادبية في كفاحها لتعيش ناقلة لنخبة المثقفين صورة متحركة من الادب ، فان التوقف والدثور قد يكونان نصيب هذه المجلة بعد حياة قصيرة او طويلة ، فاشلة او ناجحة.وعامل الخسارة المادي هو السبب الغالب في المصير الذي تساق اليه المجلة المتوقفة .غير ان حق المجلة قد يكون بسبب الدعامات التي ساندتها ذات يوم واعانتها في التغلب على العسر المادي . فان استمداد المجلة من منظمة مطعون بها او مناهضة لاتجاه البلد الذي تصدر فيه قد يعجل في احتجابها . كما ان كون المجلة حكومية تحمل الطابع الرسمي للدولة يبهت لونها ويضفي عليها فتورا يفض من حولها جمهرة المثقفين التي تتطلب طعوما حادة فيما تقرأ . وقد شهدت البلاد العربية في السنوات الاخيرة ظهور عديد من المجلات الادبية واختفاءها ، حتى ليكاد المرء يتساءل اذا كانت المجلة الادبية قد فقدت حقها في الوجود في هذه الحقبة من العصر . بل ان المرء ليتساءل ، لهذه الظاهرة وامثالها ، اذا كان الادب نفسه قد فقد مكانته في عصر السينما والتلفزيون وروايات الاوهام العلمية وقصص المغامرات من معقولة وسير معقولة .

* * *

اكتب كل هذا عن واقع المجلة الادبية وقابليتها للحياة ، في حين تتحدث فيه المحافل الثقافية في مختلف البلاد العربية وتتهيأ للاحتفال بمرور خمسة وعشرين عاما على مولد مجلة ادبية استمرت في الظهور بانتظام طول هذه المدة ، وتستمر في سلوك طريقها الذي بدأت به غير متأثرة ، في ما يبدو لقرائها ، بالمؤثرات التي تتناول المجلات الادبية من جزر ومد ، وتحويل وتبديل ، ومن تقطع او توقف . المجلة التي اعنيها هي مجلة «الاديب» التي تبدو في سيرة حياتها وفي طريقة هذه الحياة تفنيدا لكل ما أوردته في مطلع هذا المقال من امور متواضع عليها عند ذوي الاطلاع ، او انها على الاقل تبدو كالشذوذ الذي يؤكد صدق القاعدة .

هذه اذن مجلة ادبية ، عربية ، صدر عددها الاول منذ ربع قرن، ولا تزال تصدر دون انقطاع الى يومنا هذا . هي مجلة لا تعتمد على هيئة او منظمة ، ولا تستمد العون من الدولة او ترتبط بأية مصلحة من مصالحها . وهي ليست مجلة لدار نشر تتخذها واجهة لمنشوراتها واداة تعريف بكتبها وكتابها . بل انها في هذا المجال الاخير سلكت طريقا معاكسا للطريق المألوف . فقد كان لمجلة الاديب دار نشر لم تلبث المجلة حتى ابتلعتها بدلا من ان تتوسع تلك الدار وتطغي على المجلة . وبعد هذا فان مجلة الاديب ليست من المجلات الناشطة في الميدان الذي يسمونه ميدان العلاقات العامة ، وهو الميدان الذي تمتح منه المجلة في العادة ، وعن طريق الاعلان بصورة خاصة ، موردا يعينها على البقاء اذا لم يجعل منها عملا مربحا . فمجلة «الاديب» ، على ما يدركه قارئها المتتبع ، مجلة منطوية على نفسها ، او انها ملتزمة حدود حقلها الادبي تعطي فيه وتكاد لا تأخذ ، وتمنح وتكاد لا تتلقى . ومع كل هذا فان هذه المجلة ، بعد ربع قرن من الحضور القوي والمستمر ، لا تزال تسير باطمئنان ملازمة الطريق الذي سلكته منذ اول نشوئها ، لا تتحول في سيرها ولا تتأخر .

هذا الذي اقوله يجعل «الاديب» مؤسسة فريدة في نوعها ، ويدعو في مناسبة الاحتفال بمرور ربع قرن على انشائها الى التساؤل عن العوامل التي افردتها عن مثيلاتها في بعض خصائصها. وهذه العوامل في الحقيقة ليست عسيرة على المعرفة كما انها ليست كثيرة في العدد. انها تتلخص في قيام رجل واحد وراء هذه المجلة يدبر امرها في ايمان بواجبه وحب لفنه وعناد في معاناته لعمله . وهذا الرجل هو صاحب المجلة الذي اضفى اسمه عليها ، او الذي اقتبست من اسمه اسمها ، او الذي اختلط بها اسما وجسما وروحا . فقد اصبح البير اديب ومجلة الاديب كائنا واحدا في ذهن المثقفين المستقين الادب من منابعه العالية ، ممن لم تتح لهم معرفة شخصية بالبير اديب . اما الذين عرفوا البير اديب ومجلة «الاديب» معرفة المخالطة فوق معرفة المطالعة والمتابعة ، فانهم اكثر ادراكا لهذا الاندماج الذي يقوم بين المبدع وابداعه ، بين المجلة وصاحبها ، بين هذه المؤسسة الادبية وذاك الذي افنى نفسه فيها مادة وعمرا واعصابا .

البير اديب ، ذلك الشاعر بالموهبة وبالروح ، آثر على ذاتية الفنان التي تقارب الانانية ، وعلى انطلاقه غير متقيد الا بنوازع نفسه، ان يتخذ مقعد المعلم الذي يسخر النور الذي في نفسه لاضاءة دروب الاخرين . فما كانت مجلة «الاديب» في ربع القرن الذي انصرم من حياتها الا معهدا للادب ومدرسة للادباء من خلال ما تنتقيه للنشر مما تتلقاه ، ومن خلال مسايرتها للحركات الادبية في العالم العربي وتأريخها لها ، ومن خلال استقبالها لاجيال متلاحقة من كتاب يجدون في النشر على صفحاتها الجو الرفيع الذي ترتاح اليه نفوسهم اذا كانوا متمكنين، والذي يعطيهم الثقة بأنفسهم حين يكونون في حاجة الى الثقة وحسن التقدير اذا كانوا من الناشئين المبتدئين .

والبير أديب ، ذلك المثقف الواسع الاطلاع والمرهف الذوق ، العميق جذور الاتصال بكل الاوساط الواعية والنافذة ، بدلا من ان يتخذ مزاياه مطية الى نجاح مادي ومعنوي مرموق آثر ان يضع هذه المزايا بين جلدتي مجلة ادبية تحمل الى مواطن العرب ومهاجرهم اقباسا من الاطلاع الواسع والذوق المرهف ونفحات من جمال الكلمة وغنى المعنى . وقد قنع بهذا وبأن يكون هذا نصيبه من الثروة او من المناصب وعلو المقام الاجتماعي . وبهذه القناعة ، او بهذا التصميم والاصرار ، استطاعت مجلة «الاديب» ان تحتفظ بمستواها وتثابر على ظهورها في كل الظروف التي مرت بالعالم الادبي حولها ، وفي كل الازمات التي مر بها منشؤها ومحررها الاوحد ، حتى لكأن مصدرها ليس فردا واحدا عرضة الى ان يضعف او يتخاذل ويمرض بل عصبة من الرجال اولي القوة ، في بيئة هادئة مستقرة وفي ظروف دائمة المواتاة لمن يفكر وينتج في ميدان الادب والفكر .

لقد عرفت مجلة الاديب اول معرفتي بها في مطلع الشباب . كنت آنذاك قارئا معجبا بهذه المجلة التي طلعت في غمرة اعوام الحرب العالمية

الثانية تحمل الفكرة العميقة والمعنى الدقيق في اناقة وجمال فني جديدين على عيوننا وانفسنا . وعرفت المجلة بعد ذلك كاتبا من كتابها وواحدا من مؤلفيها حين نشرت لي دارها اول كتبي . وقد قادني ذلك الى ان اعرف الاديب الانسان كما عرفت «الاديب» المجلة ، وان اشهد في الفترات المتقطعة التي اقصد فيها دار مجلة الاديب في بيروت ، واري في تلك الدار الاستاذ البير اديب ، كيف يفنى الرجل في المجلة وكيف تمتص المجلة رجلها . لقد كان الرجل في ذروة شبابه متعدد اوجه النشاط وثيق الصلات باجواء العاصمة ورجال الدولة وثاقة صلاته باجواء الفن واساطين الفكر والثقافة . وكان عريض الآمال في الادب والسياسة ، وربما في الثروة المادية ورفاه الحياة ، مثل كل لداته الذين قاربت ظروفه ظروفهم وشابهت مزاياهم مزاياه . وانشا هذا الرجل مجلة ادبية لعلها كانت في ما يقصد احدى وسائله الى تحقيق آماله العراض ، ولكنه لم يلبث حتى وجد نفسه اسير ما صنعه بيديه ، لانه احب تلك الصنيعة فركز فيها همومه وآماله .لقد هجر البير اديب الاجواء الصاخبة وتجنب الاضواء اللامعة وعاف السياسة ، وكان طريقه الى النجاح فيها لا حبا ، ليعيش في بوتقة الفكر والادب التي هي مجلته . وحتى الكتابة في الادب ، وهي احدى المواهب التي زينت له انشاء مجلته ، اتى عليها تصحيح المسودات وملاحقة المطبعة وقراءة بريد الكتاب ، حتى اختفى البير اديب الشاعر العميق وراء هيكل صاحب المجلة الدائبة الصيت . واختلطت المجلة بالرجل واختلط هو بها حتى وجد في ذات يوم ان ليس طبيعيا ان يعيش هو في منزل وتعيش هي في غيره ، فجعل مقر ادارتها في داره ، مقفلا منزل الادارة على اكوام الكتب المهداة ولفافات الورق المعد للطبع ، وانصرف في احدى غرف سكنه الى التحرير والتنسيق والتصحيح لا يغادر عمل المجلة الا الى نوم او طعام .

ان البير اديب اليوم مثله امس – امس الذي مضت عليه خمس وعشرون عاما ، لا يزال مكبا على مسودات صفحات مجلة الاديب او على اكوام المقالات والقصائد والقصص التي يحملها اليه البريد من مختلف اصقاع العالم ، يرتب ويشذب ويهيء للطبع ، لم تختلف همته عما كانت عليه وان كان اليوم يستعين على القراءة بعدسة مكبرة حين لا تسعفه النظارات ، بعد ان اجريت لاحدى عينيه عملية جراحية ساقه اليها اكبابه الدائم على ما يقرأ . في ربع قرن غبر من الزمن اختلفت الطرائق بينه وبين رفاق صباه وزملاء دربه . وقد فاز بعضهم بالجاه العريض وبعضهم بالثراء الواسع ، وهو لم يكن اقل قدرة منهم على الفوز بهذا وذاك ، الا ان جاهه وثروته قد انصبا في المجلة التي تصدر كل شهر حاملة اسمه الى كل رفيع الثقافة من العرب او من المهتمين بادب العرب. وما اظنه نادما على ما انتهت اليه جهوده في خمسة وعشرين عاما من عمره . ربما لامه بعضهم او اشفق عليه لما فاته من حظ في الحياة . ولكني ما اظنه الا راضيا مغتبطا بل واظنه هازئا بآراء الاخرين في هذا المجال . فهو نفسه يقول في واحدة من قصائد ديوانه « لمن » واصفا حياة لا بد انه يعني بها حياته :

... حياة لذيذة

تختلف بجوهرها عن الحياة التي نعيشها في المجتمع

الا ان تلك الحياة الباطنية

تؤدي غالبا الى الاستهتار

...يصبح صاحبها ذا شذوذ

لا يتفهمه اصحاب الحياة الفردية

حاملو قياسات الاجتماع الفاسدة !

مجلة «الثقافة الاسبوعية» – دمشق عبدالسلام العجيلي

●

الدكتور يوسف مراد

في الثالث والعشرين من شهر (سبتمبر) توفي الاستاذ الدكتور يوسف مراد ، استاذ علم النفس بجامعة القاهرة (سابقا) ، وهو في الرابعة والستين من عمره ، بعد مرض بدت بوادره منذ عشر سنوات ، وبلغ أعنف مراحله في الاعوام الثلاثة الاخيرة . وبوفاة هذا الرجل يختفي علم من اعلام الدراسات الانسانية في مصر ، عرف في علمه بالسعي المتواصل نحو تحقيق النظرة الفلسفية الشاملة ، وبالحرص الدائم على توضيح الفكر واثراء اللغة ، وبالهمة التي لا تفتر في سبيل توصيل المعرفة الى الاخرين .

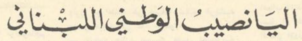
ولد الدكتور يوسف مراد في ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٠٢ . وتخرج في قسم الفلسفة بكلية الاداب جامعة القاهرة في مايو سنة ١٩٣٠ . ثم اوفد في بعثة الى فرنسا في سنة ١٩٣١ حيث تتلمذ على عدد من كبار علماء النفس في ذلك الوقت ، من امثال هنري دي لاكروا ، وبول جيوم ، وهنري فالون . وهناك حصل على عدد من شهادات الدراسات العليا : في علم النفس وفي الاخلاق والاجتماع ، وفي تاريخ الفلسفة العام ، وفي الفلسفة والمنطق، وفي الدراسات الطبيعية. ثم توج جهوده بالحصول على دكتوراه الدولة من جامعة باريس في علم النفس بمرتبة الشرف الاولى وذلك في يناير سنة ١٩٤٠ . وكان موضوع رسالته الرئيسية ، « بزوغ الذكاء : دراسة في علم النفس الارتقائي والمقارن.» اما موضوع رسالته التكميلية فكان ، « علم الفراسة عند العرب وكتاب الفراسة لفخر الدين الرازي ». وبانتهائه من هذه الدراسات عاد الى مصر في فبراير سنة ١٩٤٠ ليقوم بتدريس علم النفس في كلية الاداب. وفي سنة ١٩٥٠ رقي الى كرسي الاستاذية ، وظل يشغله حتى احيل الى المعاش في ديسمبر سنة ١٩٦٢.

كانت حياته خصبة اكثر مما ينبغي لها ، كان من اولئك الذين لا يفتأون يعملون ما دام فيهم عرق ينبض . اشرف على عدد كبير من رسائل الماجستير والدكتوراه ، فاوجد لمصر ولعدد من الاقطار العربية مجموعة من علماء النفس يتولون الان كثيرا من المناصب الهامة داخل الجامعات وخارجها والقى عددا كبيرا من المحاضر العامة في قاعة الجمعية الجغرافية وفي غيرها من الاماكن المماثلة ، واسس « جماعة علم النفس التكاملي » عام ١٩٤٥ ، وانشا « مجلة علم النفس » في يوليو سنة ١٩٤٥ وكانت على مستوى علمي ممتاز ، واشرف على نشر خمسة عشر كتابا تحمل اسم « منشورات جماعة علم النفس التكاملي » كان معظمها من تأليف تلامذته واصدقائه وعمل عضوا في لجنة مصطلحات علم النفس بمجمع اللغة العربية في عامي ١٩٤٩ و١٩٥٣ ، ووكلت اليه مهمة وضع المصطلحات النفسية في الموسوعة العربية الميسرة التي نشرت سنة ١٩٦٥ ، والقى كثيرا من الاحاديث العلمية في الاذاعة المصرية وفي متحف الفن الحديث تقع جميعها على الحدود بين الدراسة النفسية وبين الدراسة الفلسفية للفن . وكان الرجل الى جانب هذا كله حريصا على مشاهدة العدد الاكبر من معارض التصوير وفرق الاوبرا والباليه. وفي نهاية المطاف نشر بحثا ممتازا حول تاريخ علم النفس في مصر في المائة عام الاخيرة .

هذه نبذة موجزة عن حياة يوسف مراد العالم الذي كان يؤرقه طموح الفيلسوف . اما نحن تلامذته وامتداده فقد تعلمنا منه دروسا نافعة : تعلمنا كيف ان مثلنا الاعلى ينبغي ان يتجه الى الجمع بين التعمق والشمول . وتعلمنا كيف ان جزءا هاما من مهمتنا في المرحلة التاريخية الراهنة هو اثراء اللغة العربية بوضع المصطلحات المناسبة لمفاهيم العلم الذي ندرسه ، هذه مسؤوليتنا نحو قومنا ونحو علمنا. وتعلمنا كذلك كيف ان توصيل المعرفة الى الاخرين جزء لا يتجزأ من مهمتنا .

هذا ما تعلمناه . ونحن الان نتلفت حولنا فلا نجد الرجل ، لا نجد صاحب هذه التعاليم ، فنشعر بفراغ موحش . ولكن ذاكرة الانسان اقوى من الموت.وهي ملاذنا الاخير ، نحتفظ فيها تعاليمه ونعايشها وننميها ، وشيئا فشيئا سوف يعود الرجل فتملأ روحه نفوسنا : بالحكمة والحب والبيان .

جريدة «الاهرام» – القاهرة مصطفى سويف


اليانصيب الوطني اللبناني